
رأيت فيما يرى النائم
نجيب محفوظ

مطبوعات مكتبة مصر

رأيت فيما يرى النائم

تأليف

نجيب محفوظ

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه
٣٧ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت ٩٠٥١٤٧ - ٩٠٧٥٩٢

أهـل الهوَى

من فوهة القبو دائمة الظلمة زحف على أربع · زحف فى بطء وتخاذل المريض المتهالك · مد ذراعه الى جدار بيت ، يتكىء عليــه ، ليقف فى عنـــاء مترنحا ، تاركا تأوهاته المتقطعــة تتلاحق فى وهن · فى صـــباح باكر مشرق بنور الربيع الصافى والحيــاة تدب متدفقــة فى الحوانيت على الجانبين وفوق عــربات اليــد ونوافذ البيوت المتلاصقة العتيقة والسماء تعلو فوق كل شىء سقفا من الزرقة الرائقـــة · بدا عاريا تماما · فلفت الأنظار ، خاصة أنظار الأقربين ، نعمة الله الفنجرى تاجرة الخــردة ، رياض الدبش الكواء البـــلدى ، وحلومة الجحش بياع الفول · تفرست نعمــة الله فى منظره من مجلسها فوق الكرسى الخشبى أمام وكالة الخردة وجسمها العملاق ساكن فى جلبابهـــا الرجالى الأزرق وتمتمت :

ــ يا فتاح يا عليم !

فقـــال رياض الدبش الكواء وهو يتـــابعه بوجهه المغولى :

ــ وراءه حادثة من حوادث القبو ··

فقال حلومة الجحش بجسمه القصير البدين ووجهه الريان :

ـ يفعلها الذئاب ونتعب نحن بين س و ج ..

واصلت نعمة الله تفرسها حتى وضح فى وجهها ذلك المزيج الغريب المكون من قوة مخيفة وأنوثة ناضجة مكشوفة ثم قالت بنبرة خبير :

ـ ابن ناس !

تجلى الاهتمام فى عينى الرجلين فتبادلا نظرة معبرة ربطت ما بين الدكانين الواقعين فى مواجهة الوكالة فى الجانب المقابل ثم حدجا القادم من المجهول بنظرة جديدة . انه شاب فى الحلقة الثالثة ، ناعم البشرة ، مهذب الملامح ، أبعد ما يكون عن الوجوه الكالحة المعهودة ، ثم قال رياض الدبش مداريا انفعاله :

ـ اعتداء وسرقة !

ومضى يتجمع حوله جمهرة من المشاهدين ولكن نعمة الله نهرتهم فتفرقوا سراعا . وجاء مخلوف زينهم من أمام العيادة فى الوسط فتلقى الشاب بين يديه قبل أن يسقط فوق أديم الأرض عاجزا عن التماسك . ونادى عبدون فرجلة الشاب العامل فى الوكالة فأذنت له المرأة بتلبية النداء فتعاونا ـ مخلوف المرض وعبدون ـ على حمله الى العيادة . هناك أنامه مخلوف فوق كنبة وغطاه بملاءة منتظرا قدوم الطبيب محسن

زيان فى ميعاده من الضحى • انه رجل كهـل فقد فى الحرب ابنا فى مثل سنه ولا ينقصـه العطف على أى شاب رغم ايلافه مناظر العناء والمرض • ولما فحصه محسن زيان الطبيب البدين ذو النظرة الخاملة الطيبة تمتم :

ـ كدمات فى الرأس والجبين نتيجة ضربات شـبه قاتلة ، علينا أن نبلغ الشرطة ••

فقال مخلوف زينهم بامتعاض :

ـ انهم ذئاب القبو ، وستغضب نعمة الله !

تبادلا نظرة تسليم واحتجاج ، ثم تمتم المرضن :

ـ انهم تحت حماية المرأة ، وهم جنودها السريون عند الحاجة ، ولا قبل لأحد بتحديها ••

فشرع الطبيب فى العلاج وهو يقول :

ـ ما قيمة حياة تجرى تحت رحمة امرأة كهذه !

ولم ينقطـع ذكر الشـاب الضحية فى موقع وكالة الخردة • شـغل حلومة الجحش بزبائن الفول وراح غلام فى دكان رياض الدبش يسخن المكواة فوق الجمر المتقد على حين انهمك عبدون فرجلة فى ترتيب ما تبعثر من اطارات السيارات القديمة وقطع الغيار المستهلكة والمحركات والمراوح البـائدة • وسـألت نعمـة الله عبدون عن حال الشاب الذى شارك فى حمله الى العيادة

فلاح فى وجهه الطويل الشاحب الضيق لاهتمامها به وقال :

ـ سنسمع قريبا عن موته !

فحولت رأسها المكلل بشعر أسود مفروق مسترسل فى ضفيرة غليظة ملتفة حول صفحة العنق ونافذة فى طوق الجلباب الى رياض الدبش قائلة :

ـ سمعت ما يقول ابن التربى عن الأفندى ؟ !

فتساءل رياض الدبش مستنكرا :

ـ الأفندى ؟ !

ـ أفندى وحياتك ، أفندى وابن ناس !

فدارى رياض غيظه بابتسامة ميتة وان جارى عبدون فرجلة فى حنقه أما نعمة الله فتساءلت :

ـ ولكن ماذا جاء به الى القبو ؟

فقال رياض منفسا عن صدره :

ـ وراء بنت من حريم الذئاب !

فقالت بحدة بصوتها الجامع بين الأنوثة والذكورة :

ـ مثله لا يجرى وراء خنفساء !

ـ المؤكد أن الذئاب هجموا عليه فضربوه ثم جردوه من كل شيء ..

ولما رجع الى الظهور فى الحارة تبدى فى صورة أخرى . رفل حافيا فى جلباب قديم أهداه اليه مخلوف زينهم . لم يبق من آثار الحادث الا ضمادة التفت حول

رأسه كالعمامة · وبدلا من أن يذهب الى حال سبيله هام على وجهه فى الحارة مثل كلب ضال بنظرة خائفة مستطلعة تعكس من الداخل خواء وحيرة ولا تعرف لنفسها هدفا · ووقف أخيرا فى مجال الرائحة الحريفة الدسمة البدائية المنتشرة من الطعمية فى ابتهال ذليل· حامت حوله أعين كثيرة لرجال ونساء سرعان ما هجرته فى لا مبالاة الا عينين سوداوين ثبتتا عليه فى اصرار وتماد · ولمست عذابه فأمرت حلومة الجحش بأن يهدى اليه رغيفا وطعمية على حسابها · ورغم اشرافها على شحن ثلاث عربات بالخردة ومراقبة عبدون فرجلة والمشترين فقد تابعت التهامه للطعام بسرور وحشى · يكاد الشعر النابت فى عارضيه ولغده أن يلتهم وسامة وجهه كما يلتهم هو الطعام · ترى لم لم يذهب الى حال سبيله ؟· وماذا يبقيه فى هذه الحال الزرية البائسة ؟ · وبدافع من شعور فطرى بالامتنان تربع على الأرض غير بعيد من موقفها مسندا ظهره الى جدار الوكالة الذى لاح جوفها كمخزن لنفايات الحديد · وسألته باهتمام :

ــ اسمك يا جدع ؟

فرفع اليها عينيه العسليتين فى حيرة واضحة ولم ينبس فتساءلت كالمحتجة :

ــ أهو سر لا يذاع ؟ !

فتحولت الحيرة الى صورة ناطقة للعجز فقال لهـا رياض الدبش الكواء :
ـ الصبر ، ألا ترين أنه لم يشف بعد مما به ؟
ـ لحد نسيان اسمه ؟
ـ ما زال غير موجود !
فرجعت الى الشاب قائلة :
ـ اسـمك ؟ ·· تذكر وأجب ، من أنت ، من أين جئت ؟
فانقلب العجز عذابا وتوجس خيفة فقالت بحدة :
ـ قل أى شىء ··
فغمغم مقهورا :
ـ لا أدرى ··
فرددت عينيها بين رياض وحلومة قائلة :
ـ انه يهزأ بنا ··
فقال عبدون فرجلة وهو لا يكف عن العمل :
ـ دعينى أطرده بعيدا ··
فصاحت به :
ـ طردت العافية من بدنك !
ونادت مخلوف زينهم فلما حضر الكهل سألته عن الشاب فقال :
ـ انه بلا ذاكرة !
فقالت بضيق :

ـ لم أسـمع عن هـذا المرض من قبل ، هل يطول غيابه ؟

فقال الكهل بعطف :

ـ لا أحد يدرى ، مـن ناحيتى فانى أسـعى لدى الطيبين للتبرع بما يكفى لنشر صـورة له فى الجرائد كى يهتدى أهله اليه ..

فقالت المرأة بغلظة :

ـ كف عن ذلك ودع الأمر لى !

فرمقها الكهل بيأس ثم قال :

ـ لك الجزاء الحسن عند الله ..

ومضى نحو العيادة .

وأفسحت المرأة للشـاب مجالا للعمـل فى الوكالة معلنة بذلك اهتمامها به فأقلع الجميع عن التفكير فيه ايثارا للسـلامة . وراح يؤدى ما يطلب منه نظـير طعامه وكسائه ، وتجاهله عبدون فرجلة طاويا حقده فى قلبه خوفا من المعلمة ، ولكن الحقد عليـه تفشى فى قلوب كثيرة ، فى مقدمتها قلبا رياض الدبش وحلومة الجحش . توقع كلاهما دهـرا أن عبدون فرجلة هو المرشح للنعيم حتى زحف الفتى المجهـول من القبـو كالقدر . وتجلى رونق وجهه بعد الحلاقة ، وشعر رأسه الممشط بعد ازالة الضمادة كما ارتسمت رشاقة قامته فى البنطلون القصير الكاكى والقميص الرمادى نصف

الكم والحذاء الأسود الموكاسان · أما هويته المفقودة فلم تسترد ، ومضت هـوية جديدة بدائيـة تستكشف الوجود من حوله بدهشة ثابتـة ، مستهترة بالتقاليد والحياء والنفاق ، لائذة بغرائزها المتحفزة · وتمنى له الحاقدون الشقاء لعله يختفى فجأة كما ظهر فجأة ·
أما نعمة الله الفنجرى ، المرأة الرائعة المخيفة فكانت تحلم بمسيرة أخرى · سرتها نظراته النهمة البهيمية ، ولغتـه الصـامتة المكشوفة معـا ، وحومانه الحار الجنونى حولها بلا حياء ، حتى قالت لنفسها « لا بد من تهذيبه » · قوتها الراسخة نفسها اهتزت حيـال هوج انفعالاته الجامحة ، فخافت أن يصـيبها سـوء مجهول بين يديه المندفعتين بعنف البراءة العمياء · وقالت لنفسها أيضا « انى أخيف الرجال ولكن لا أدرى كيف أتعامل مع الزوابع » · بدا غريزة مجسدة تهيم فى غابة من نفايات الحديد · وسمعت عبدون فرجلة يدعوه بالمجنون فنهرته قائلة بنبرة آمرة :

ــ انه يدعى عبد الله !

فتساءل عبدون :

ــ ألا ترين أنه لا يعرف دينا ولا ربا ؟ !

فشكمته بضربة فى صدره أوشكت أن تطرحه أرضا ، وسرعان ما عرف بعبد الله ، ولكنها قلقت من خريته المطلقة المنذرة دائما بعواقب مجهولة · انه لا يتورع

عن مد يده الى أى موضع خصب من جسمها فترجعه جادة حذرة ، رغم ظهورها بمظهر الرجال فى الوكالة طيلة النهار ، فكيف لو لمحها فى منظرها الأنثوى الطاغى فى مسكنها الناعم الخيالى فوق الوكالة ؟ ! ٠ وخطر لها خاطر حكيم ادخرته لزيارة الشيخ جابر عبد المعين امام الزاوية الذى يتلقى منها المعونة له وللزاوية فى أيام محددة ٠ انها تغطى طغيانها المخيف بنفحات كرم تسكت بها ذوى الألسنة القادرة ، وتمارس فى الدين طقوسا وثنية فلا تأبى ـ رغم جبروتها ـ أن تؤنس وحدتها الداخلية بالأحجبة والتعاويذ ٠ جالست الشيخ على أريكة قائمة فى الجانب الأيمن من الوكالة بين تلين من قطع الحديد ٠ وتراءى عبد الله وهو يعاون عبدون فرجلة فى شحن عربة بالاطارات الملساء ، ولمحت المرأة الشيخ وهو ينظر نحوه فقالت :

ـ أعطيته عملا ورزقا ٠٠

فقال الشيخ وهو فى أعماقه يخافها ولا يحبها :

ـ الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ٠٠

ـ ولكنه نسى الدين فيما نسى ٠٠

ـ أعوذ بالله ٠٠

فقالت باغراء :

ـ هذه هى مهمتك يا شيخ جابر ٠٠

ــ يا لها من مهمة شاقة ! ..

ــ لا تكن طماعا ، وحظك محفوظ ، المهم أن تعلمه كيف يخاف ، يكفى هذا ..

أدرك لتوه أنها تريده على أن « يعده » لها . لعنها فى سره واستغفر ربه ، وقال لنفسه انه ليس من حقه أن يسىء بها الظن استنباطا من نية لا يعلمها الا الله ، وأن مهمته فى ذاتها خير يستحق عليه المثوبة . ودهش كثيرون عندما رأوا الفتى يساق كل عصر الى الزاوية لتلقى دروس فى الدين . وقال السذج انها امرأة شريرة طاغية ما فى ذلك شك ولكنها لا تخلو من جانب خير . أما أمثال رياض الدبش وحلومة الجحش فقد فطنوا الى اللعبة . وتساءل حلومة بحرقة :

ــ متى أراها فريسة للزمن ؟!

كثيرون يعيشون بجراح دفينة حفرتها فى قلوبهم أظافر المرأة . حظى من حظى منهم بالعشق حين جادت به وتجرعوا الهجر حين هجرت . وعند ظهور فتى جديد يختال فى أبهة النصر يتعزون عن الأسى بتربص النهاية المحتومة . انها دائما تتربص هناك لا دافع لها ولا مهرب منها . ولكن متى تخمد نيران تلك الشهوة المتأججة ؟ ! . وراحت تكافىء الشيخ جابر على دروسه بكرم ثم تراقب الفتى وتنتظر . ودخل فى مقام من مقامات الحيرة ، وتجلى التساؤل فى عينيه . ولم

تشأ أن تسأله حتى يبادرها بالسؤال ، وقد سألها :

ـ أهو صادق فيما يقول ؟ ٠٠ أعنى الشيخ جابر عبد المعين ؟

فقالت بحرارة :

ـ الصدق أعز ما يملك فى هذه الحياة ٠٠

فاشتدت حيرته ومضى يعرف الحياء ، ويدارى انفعالاته ، ويأسف بعد ارتكاب الخطأ ٠ وحثت هى الشيخ على أن يعفى الفتى من التعمق أو يكلفه بما لا يطيق ٠ انها تكره العارفين الذين يستشهدون عند كل موقف بما يناسبه من الآيات ٠ انها ترغب فى امتلاك الشاب وتخاف تمرده ، وعلمتها حياتها أن القليل من الدين مفيد أما الكثير منه فينذر بالخطورة والغم ٠ وهى مرتاحة الى نمو رغبته فيها وعذابه الدفين بالتردد والحياء والخوف بعد أن وسع قلبه الرغبة والعبادة فى آن ٠ وتمتم أمام شيخه :

ـ الله والجنة والنار ٠

فقال له الشيخ جابر :

ـ تدبر ذلك بعقل ناضج تجاوز الطفولة والصبا ٠٠

فتساءل فى حيرة :

ـ والرغبات الجامحة من خلقها ؟

فقال الرجل بضيق خفى :

ــ هذا هو امتحان الانسان ٠٠

وعلم فيما علم بما ضــاع من ماضــيه ٠ أى فرد يجهل مستقبله أما أنا فأجهل ماضى ومستقبلى معا ٠ ماض ليس بالقصير وحفل ولا شك بأشياء وأشياء ٠ ولم يفطن الى جو الحقد الذى يلفحه الا قليلا ، فعــدا عبدون فرجلة لم يشعر بعداوة مجســدة ، ولم يفطن كذلك الى أن نعمة الله ترصد اللحظة المناسبة لانتزاعه نهائيا من يدى الشيخ جابر عبــد المعين ٠ ولكن قلبا واحدا ظل يخفق بالعطــف عليــه هو قلب المـمــرض مخلوف زينهم ٠ تسلل مساء الى الزاوية فصلى المغرب ثم انتحى بالشــاب ناحية عقب انتهــاء الدرس ٠ لمس التجهم المشوب بالقلق يغشى وجه الشيخ جابر فغضب وقال له :

ــ اخش ربك وحده !

فتساءل الشيخ بحدة :

ــ وأنت ألا تخشى المرأة أيضا ؟

ــ يمكن أن تستمد من العمامة قوة وليس لى ذلك ٠

فقال الشيخ :

ــ لولا المرأة ما كانت الزاوية !

فقال له بأسى :

ــ انك تعلم أنها ترعاها من أجل الشيطان ٠٠

وأقبل على الفتى معرضا عن الشيخ وقال :

ـ سوف تسترد ماضيك يوما ما ، مظهرك يدل على أنك منحدر من أصل طيب ، ولعلك كنت ماضيا فى مهمة نافعة ، لست من حينا فماذا جاء بك اليه ؟ ، والعمل المتاح لك اليوم لا يناسبك فماذا كان عملك ؟ ..

فتمتم عبد الله :

ـ لا حيلة لى الآن ..

ـ هذا واضــح ، المهم ألا تتورط فى مأزق يتعــذر الخروج منه اذا انقشعت الظلمات ..

ـ نعمة الله هيأت لى عملا ومأوى ..

ـ هى فى الحقيقة نقمة لا نعمة !

ـ لولاها ..

فقاطعه :

ـ انها صاحبة خطة قديمة متجددة ، سوف تهبك نفسها فتظن نفسك سيد العالمين ..

فتورد وجه الفتى وخانه السرور فأضاء به وجهه فقال الرجل بحزن :

ـ لست الأول ولن تكون الأخير ، وسوف تلفظك حتما وبلا رحمة فتتلاشى ساعات السعادة الزائفة فى حمــأة الهجر الدائم وتنضــــم الى ركب التعســـــاء الكثيرين ..

قلقت فى عينيه العسليتين نظرة حائرة ولكن موجة

الفرحة القريبة الراقصة اكتسحت نذر المصير المخيف المجهول ، فقال الرجل وهو يصارع الهزيمة :

ـ انهـا قوية بلا حدود ، حتى ذئاب القبـو الذين اعتدوا عليك يخضعون لها ، وعنـد الضرورة تزهق روح من يعاندها ، هى السحر وكفى ··

فتساءل الشاب احتراما لعطف الرجل :

ـ ماذا تريد منى ؟؟

ـ أن تهجر الحارة فى الحال ··

ـ الى أين ؟

ـ ستجد لك رزقا فى مكان ما حتى تستعيد ذاتك ··

صمت دون حماس فتساءل الرجل بقلق :

ـ أوقعت فى قبضة قدرك ؟

فأجابه بصمت ناطق واستخفته الفتنـة ، وشـعر مخلوف زينهم أنه يجرى بعيدا عنه ، وأنه ينطلق نحو تجربته المهلكة بحماس دافق · تنهد الرجل · قام وهو يتبادل مع الشـيخ نظـرة حنق ثم مضى وهو يقـول للشاب :

ـ الله معك !

وهـل الصـيف بشخصـيته الواضحة المتحدية ، وتحت شمسه المحرقة سرى العنف فى الحناجر واحتدم الخصام لأتفه الأسـباب · واتهم عبدون فرجلة الفتى

بسرقة قروش افتقدها فانقض عليــه يصــارعه لولا ظهور نعمة الله فى اللحظة المناسبة وانذارها عبــدون بالطرد اذا عاود العدوان • وقررت المرأة كف الفتى عن دروسه الدينية اكتفاء بما حصل من قشور فكثر الفراغ فى حياته كما كثرت الهموم • بات يخاف الله ، ويخاف عبدون ، ويخاف تحذيرات عم مخلوف زينهم ، ويتساءل عن ماضيه الطيبْ والمهمــة التى جاءت به الى هذه الحارة العصبية ، ويتساءل متى يبدأ العشق قصته ، وماذا يمكن أن يقال عن المصير المحتوم ، وألا يكون خسرانه أكبر ان تجنب التجربة المغرية ليتفادى من المصير المحزن ؟ ! • خاض فترة قلق ، وتطلع الى معلمته بنفاد صبر ، وجزع لانهماكها فى العمــل وما يبدو من تجاهلها لحاله • غير أنها كانت قريبة منــه أكثر مما يتصور ، ومتغلغلة فى تلافيف ذاته بقوة امرأة آسرة وأسيرة فى آن • انها رغم قوتها المعترف بها ، وقدرتها الادارية ، وســطوتها الأسطورية ، فريســة لخيالها المنطلق وعواطفها الجامحة • انهــا تعشــق حتى الموت ، وعشقها داء لا دواء له ، وعندما يرشح لها قلبها فتى من الفتيان فتهيم به وتجن ، ولكن الخبرة ترسم لها وسيلة ظاهرها القــوة واللامبالاة • توكد لديها أنها تعــانى حال عشق جنــونى لا نزوة طارئة فتأهبت للتجربة • لاذت بخلوتهــا الصغيرة بمسكنها

الوثير المفروشة أركانه بالشلت الدسمة المكسوة بالأغطية الخضراء ، يتوسطها وعاء نحاسى مجوف ملىء نصفه بالبخور ونصفه الآخر بقصاصات منقوشة بالتعاويذ والأدعية والنداءات الخفية • ذرت قبضة من البخور فى مجمرة ثم لهجت بابتهالات تستحضر بها ساحرها القديم الذى غادر الدنيا على عهد شبابها الأول • وشملت الظلمة المكان الا لآلىء تتألق فى الجمرات وانتشرت رائحة البخور العميقة مفعمة بالابتهال والنداء • وحل بالظلمة وجود جديد ، ثمرة للرغبة الحارة المستميتة ، كحضور ذى وزن ملأ فراغ الخلوة بثقله غير المرئى ، وسرعان ما انقشعت الوحدة وتلاشى الألم • تشجعت وهمست دون أن تجفف عرقها :

ـ أهلا بك يا برجوان ••

فنفذ الى أعماقها صوته المغلف بالموت :

ـ القبو يطيعك ، الرجال يخافونك ، شبابك حى ••

فهمست باشفاق :

ـ حل بى الجنون من جديد •

ـ صاحبك أيضا مجنون •

ـ قد يرجع الى ذاته قبل أن أبرأ من عشقه !

ـ اذا رجع نسى حاضره ولا حيلة فى ذلك •

فقالت بتوسل :

ـ سحرك قادر على كل شىء ٠

فقال بضجر :

ـ أولى بك أن تحذرى مخلوف زينهم ٠

فهمست بقلق :

ـ أعلم نواياه ولكنى أخاف أن أؤدبه بنفسى فأرعب الفتى ٠٠

فتنهد الظلام فى استجابة ، وتلاشى الحضور فى الحال فعادت الى وجدتها ولكن بقلب مترع بالثقة ٠ وأقعد المرض المرض مخلوف زينهم عن عمله فى عيادة الطبيب محسن زيان ٠ وعرف فى الحارة أنه أصيب بروماتزم مفصلى شديد غير أن الشيخ جابر عبد المعين قال لزوجته :

ـ انه من عمل نعمة الله !

فقالت المرأة مذعورة :

ـ ليتك لم تش به ٠٠

فغضب الشيخ ولطمها على وجهها لطمة شديدة ٠

وأراد عبد الله أن يعود الرجل الذى كان أول من كساه بعد عرى ولكن نعمة الله قالت له :

ـ لا أحب هذا ٠٠

ثم خففت من وقع أمرها فقالت له :

ـ مسكنى فى حاجة الى الخدمة ، وقد اخترتك لذلك ٠

ونسى صاحبه ، وتساءل فى سرور طاغ « ترى هل انتهى العذاب ؟! » · وثمة باب فى الوكالة يفتح على سلم للمسكن تسلل منه ليلا · استقبلته رائحة البخور وضوء مصباح كهربائى مثبت فى أعلى الجدار · صعد فى الدرج ووجدانه يسبقه يطمس بحمياه معالم المكان · فى نهاية دهليز رأى بابا مواربا يشع منه نور ، مضى اليه وتنحنح · جاءه صوتها الليلى الرخيم داعيا فدخل · لم ير من الحجرة سواها وهى مستوية على كنبة مسندها مطعم بالصدف فى جلباب حريرى أبيض يخفى قسمات الجسد ولكنه ينبىء عن عملقته بطريقة انسيابية تثير الخيال · وليس فى الوجه المتسلطن أثر من زواق ولكنه ينضح بأنوثة فوارة بعد أن خلعت قناع الذكورة الصارم الذى تتعامل به فى الوكالة والحارة · والشعر الأسود ذو لون طبيعى لا يشى بأى تكلف كيماوى ، دافىء بشباب راسخ · تركته واقفا فى جلبابه الفضفاض ، لم تخفف من ارتباكه بكلمة ، كأنما لتمتحن أثرها فيه ، ولترى لأى تكون الغلبة : الخوف أم الرغبة ؟· ومن شدة حرجه انتزع عينيه منها ليلقى نظرة عما حوله ولكنه لم ير سوى النظافة وكأنها تقوم بذاتها · وتنفس رائحة طيبة · قال :

ـ لعله وقت مناسب لتنظيف المسكن ولكنه ليس فى حاجة الى تنظيف ··

فصبت من ابريق مفضض فى قدحين فوق خوان مطعم بالأصداف سائلا فاحت منه رائحة القرفة الممزوجة بالزنجبيل ، وعادت تنظر نحوه · وبسريان الخمر غير المنظورة فى دمه التصق بصره بها فى جرأة السكران · وتمادى فى انفعاله حتى اكتسح العواقب واستسلم لتيار قوى دفع به نحوها كالقذيفة · وكالقذيفة راح يتنقل بين أبعادها وهى تتلقفه بحنان حار ، ورضى آسر ، واستجابة مستكينة وحماسية معا · وما لبث أن توج فوق عرش النشوة والسيادة ، وامتلأ واقعه بعذوبة الأحلام · وتمنى لو استمر ذلك دون توقف ، لو كان الحب ذا سياسة أخرى ، لو أن السعادة لا يجرفها تيار الذكريات · لكنه وجد نفسه راقدا فى حضن الفتور الجليل يرى الأشياء لأول مرة · انها حجرة أنيقة حقا · متوسطة الحجم ، مزينة الجدران بسجاد صغير وبسملة مذهبة ، تتوسط أضلعها كنبات وثيرة ذوات أغطية مختلفة الألوان ومساند مطعمة بالأصداف مموهة بالأمثال ، مغطاة أرضها بسجادة حمراء فى وسطها مجمرة كبيرة تحت مصباح كهربائى فى قنديل · وسرعان ما انتقل من الفتور الى القلق حتى قالت له :

ــ نظرة عينك لا تعترف بجميل ·

فلثم خدها وهو يقول ببراءة :

ـ أخاف النار !
فابتسمت قائلة بحنان :
ـ عندما تهب المرأة نفسها فالعلاقة شرعية مباركة !
فمال الى تصديقها بكل قواه ورآها جديرة بالانقياد، أما هى فواصلت :
ـ منذ الساعة فأنت شريكى فى البيت ووكيلى فى الوكالة !

وتبدى فى صورة جديدة ، صورة المعلم الشاب بجلبابه الأبيض ولاثته المزركشة ، وزهوه المتورد · وعمل عبدون فرجلة فى ظله ، مكرها على طاعة مرة كالسم ، منطويا على مقت وحسد كالنار · وشاركه فى عواطفه الدفينة رياض الدبش الكواء وحلومة الجحش الفوال وآخرون · ولكن عبد الله تجاهل فى نشواته العواطف الدفينة · وأقبلت السعادة كالشمس تنتشر أشعتها فى جميع الأرجاء فجذبت مسمعيه ضحكات السكارى والمساطيل وأطربتها أنغام المزامير الراقصة وأغانى الراديو وتصامم عما عدا ذلك حتى آمن بأن مهجره الجديد ما هو الا موطن للسرور والرحمة فشكر الحظ الذى ساقه من المجهول الى القبو واستخلصه من ماض لا يجوز أن يأسف عليه · وانغمس فى الحب فى الليالى المذابة فى أقداح القرفة والزنجبيل الحاوية لنفثات السحر ، الداعية لعوالم

الخيال والذهول . وتكشفت نعمة الله عن معجزة لا نهاية لابداعها وفنونها وأنغامها ، ولا نهاية لقدرتها الخارقة فى اشعال الحيوية وتفجير الطاقة ، وخلق المسرات ، واشباع الكرامة ، وارضاء الغرور . انغمس فى الحب حتى قمة رأسه ، وتعلق بها حتى الجنون ، وألهمته سعادته الاحساس بالدوام والخلود ، فاقتنع بكل قواه بصدقها واخلاصها ووفائها ، وتطايرت أصداء ما قيل له عنها فأنسيه وكأنه لم يكن . ونسى تماما القلق والتساؤل والحيرة والاساءات العابرة فبدت جميعها كالأشباح الوهمية التى تفنى فى ضوء الشمس الساطع . وقالت له ليلة فى دعابة :

ـ أراك لا تتكلم الا نادرا ..

فتحير قليلا ثم قال :

ـ السعيد لا يجد ما يقوله الا نادرا ..

فابتسمت قائلة :

ـ كتب علينا ألا نسمع الا ما يسوء !

فقال ضاحكا :

ـ انى أثرثر ولكن بغير لسان !

ـ ألا توجد فى قلبك رغبة ؟

فقال بحماس :

ـ أن يدوم الحال ..

فقالت بنبرة صدق :

ـ هو ما أوده أيضا ٠٠
ـ اذن فلن يهدد دوامه شيء ٠٠
وصمتت قليلا وهى تتفحصه ثم سألته :
ـ ألم يعد يهمك أن تعرف المجهول من حياتك ؟
فهتف ضاحكا :
ـ أبدا ، الحق أنى أخشاه على حاضرى ٠٠
ـ وأنا أيضا مثلك ٠
وبعفوية تبادلا قبلة ثم قال :
ـ ألا توجد وسيلة لحماية حبنا اذا انكشف المجهول ؟
ـ هذا ما لا أدريه ٠٠
فتساءل بحرارة :
ـ ألا ترينه أقوى من أن يؤثر فيه شيء ؟
فقالت بحماس :
ـ هو كذلك ٠٠

فاستوى حصنا منيعا من اليقين والطمأنينة خليقا بأن يصمد لأجنّ العواصف والترهات ٠ وثمل بسعادته فلم ينتبه لجريان الزمن ٠ فى تلك الغفلة العذبة تلاحقت أيام الصيف لاهثة وتسلل الخريف بخطاه الخفيفة ، ينفث فى الجو أنفاسه الرقيقة ويخضب السماء بفرشاته البيضاء ويغزو القلوب بأنغامه الشجية ٠ ومضت نيران العواطف المتأججة تخبو

قليــلا قليــلا ، ويحل محلهــا حب هادىء ، موسوم بالاعتدال ، متحرر من جنــون الافراط ، مالك لوقت ينفقه فى التعامل مع سائر أركان الحياة ٠ وزحف ذلك التطــور على الطرفين معــا ، الفتى والمرأة ، فخلطا أحاديث الهيام بهموم الوكالة والحارة ، واستأثر الجد بالحوار حينا فخلا من أية مداعبــة ، فانبثق التلاقى الحميم ثمرة للرغبــة مرة ، وثمرة للعــادة أو دفعــا للشكوك مرات ، حتى تساءل عبد الله ما هــذا الذى يحدث ؟ ! ٠ بدا كل شىء بالقياس اليه ــ بخلاف المرأة ــ كأنمــا يحدث هــكذا لأول مــرة فى تاريخ البشر ٠ واسترق النظرات الى المرأة الهادئة فساورته الشكوك وازدحم أفقه بالفكر ٠ ولمح يوما عم مخــلوف زينهم وهو ماض نحو العيــادة فاســتعاد تاريخه معــه فى لحظة ٠ أدرك بكل سرور أن الرجل برىء من مرضــه فاندفع نحوه بتلقائية ، ولكن الكهل صــدمه بنظــرة باردة رافضة وابتعد عنه فى تجاهل تام ٠ توقف متعثرا فى ارتبــاكه ، متذكرا ذنبه فى اهمــاله حين مرضــه ، وتراجع الى موقفه وهو يتلقى من أعين كثيرة نظرات لاذعة ٠ شعر بأنه خسر صديقه الوحيــد فى الحارة ٠ وانتبهت حواســه لما حوله من جديد فقــرأ الحســد والشماتة فى أعين عبدون ورياض وحلومة ! ٠ الجو مشحون بالكراهية والحسد ٠ وتذكر تحذيرات زينهم

فأوشك أن يفقد الثقة ، وبدافع من تحد راح يقطع الحارة ذهابا وايابا ويختلف الى المقهى بعض الوقت. وتتلقى أذناه كلمة من هنا وكلمة من هنا . لم يتصور أن تكون امرأته الشغل الشاغل للناس بهذه القوة . هل عشقتهم ونبذتهم جميعا ؟ ! . انهم يخافونها بقدر ما يمقتونها وكأنهم لا حيلة لهم قبالتها . وهى فى نظرهم قوية ، بل أقوى من جملة رجال أشداء ، ولكن لا أهمية لقوتها اذا قيست بتمرسها بالسحر وتعاملها مع العفاريت ، أو بتسلطها على ذئاب القبو الذين لا يتورعون عن القتل خدمة لها . ولا يكاد ينخدع أحد برعايتها للزاوية وشيخها أو برها ببعض الفقراء ، ويرون فى ذلك ستارا كاذبا تسدله على آثامها ورغبتها الشرهة فى التحكم فى الناس والأرزاق . واذن فجميع مظاهر السرور فى الحارة ما هى الا قشور أما الحقيقة فهى أنها تعيش فى جو يموج بالخوف والحقد ، تهدده فى كل حين الذئاب والعفاريت ، وتنحسر فى الوقت ذاته عن ساعات لذة عابرة جادت بها المرة المحترفة فى غفلة من الزمن . أهذه هى نعمة الله حقا أم أنه خيال يشعله الحسد والحقد ؟! . ألم يجد حبها صادقا وعطفها شاملا واخلاصها راسخا ؟! . وحتى الهدوء الذى آل اليه ألم يقع له نفس الشىء ؟! . هل يمكن أن يتهم هو بسبب من الاعتدال بعد الجنون بفتور الحب

أو انقلاب العاطفة ؟! • ولكن من ناحية أخرى لم يتقرر له مصير غير مصير الآخرين ؟! ، لم ينجو من الكأس التى تجرعها الجميع حتى الثمالة ؟! • وتلتقى عيناه بعينيها وهى منهمكة فى العمل فتبتسم اليه ابتسـامة حلوة تمحق وساوسه فيشرق الأمل بنفسه من جديد • وتشجع فى ليل ذلك اليوم الخريفى وقال لهـا وهمـا يرشفان من قدحى القرفة بالزنجبيل ويهيمان فى ملكوت الأوهام الحانية :

ـ أتدرين ما يقال عنك فى الحارة يا نعمة الله ؟

فداعبت وجنته بأناملها وقالت :

ـ لست غافلة عن شىء يهمنى أبدا •

فقال بامتعاض :

ـ ما أظلمهم لك يا نعمة الله •• !

فتساءلت فى دعابة :

ـ أترانى ملاكا ؟

ـ انك عظيمة وطيبة ••

فقالت بهدوء :

ـ ولكى أكون عظيمة وطيبة يجب أن أكون أحيانا حازمة وقاسية ••

فتساءل وهو يكتم وساوسه :

ـ لك تاريخ عجيب ولا شك ؟

ـ طبعا ، انى سليلة فتـوات كما كان أول زوج لى

فتوة فنشأت قوية ولكنى كنت وما زلت ذكية فسلمت بانتهاء عصر الفتـونة ، غير أنه لا غنى عن القـوة والذكاء .

ـ أحقا تسيطرين على الذئاب ؟

ـ نعم ، ان لم أسيطر عليهم سيطر عليهم الآخرون وحلت الفوضى ..

فسأل بعد تردد :

ـ وهل تجيدين السحر أيضا ؟

ففكرت قليلا ثم قالت :

ـ هذا هو الاسم الذى يطلقه العجزة على الذكاء ..

فقال بقلق :

ـ التعامل مع العفاريت أمر مخيف ..

فتساءلت ساخرة :

ـ هل عثرت على عفريت فى هذا البيت الجميل ؟ !

فتنفس بارتياح وتساءل :

ـ لم لا تعيشين مثل الناس العاديين ؟

فقالت بكبرياء :

ـ لأننى لست عادية !

وساد الصمت حتى تجلت للسمع أصـوات رقيقة للخريف فى الخارج ، وجعلت تلحظه باهتمام فلما لاذ بالصمت قالت مستلهمة نظراتها النافذة فى الأعماق :

ـ قل ما عندك ، ما زال عندك ما يقال ..

فضحك ضحكة قصيرة وتساءل :
ـ أحقا تزوجت من كثيرين ؟
فقالت باستهانة :
ـ نعم ·
ـ وهجرتهم أو أجبرتهم على الهجران ؟!
ـ نعم ·
فتساءل وقلبه يخفق :
ـ ولكن لماذا ؟
فقالت ببرود :
ـ لم أجد بينهم صالحا ··
وراقبت وجومه قليلا ثم همست فى أذنه :
ـ أنت أول من أجد !
فرنا اليها غير مصدق فقرأ الصدق فى عينيها الجميلتين المتسلطتين وهمس فى أذنها :
ـ لا حياة لى بدونك يا نعمة الله ··
ـ ولا حياة لى بدونك ··
فقال بحماس وحرارة :
ـ أخاف عليك حقدهم المنتشر ··
فقالت ساخرة :
ـ لا خوف من حقد مصدره العجز ··
ـ كراهيتهم لى أيضا تلفحنى فى كل خطوة ·
فقالت بوضوح :

ـ احذر أن تظهر خوفا أو قلقا ٠

مضى يسترد الثقة والسكينة بين يديها ، ولكن يتبدد أمنه فى الوكالة والحارة ٠ استعاد حديثها كثيرا فلم يعرف الاستقرار قلبه ٠ امرأة تثير عواطف شتى ومتناقضة ٠ تلهم الحب والطمأنينة والخوف والشك ٠ يراها فى الوكالة شخصا آخر ٠ يرى رجلا قويا ومثالا للحزم والعنف أيضا ٠ لا تقارب بينه وبين الأنثى التى تبهر الليالى فى المسكن الناعم ٠ وخطر له أن يسأل نفسه « ترى هل وجد مثل هذه الحيرة فى حياته المجهولة ؟ ! » ٠ وكان يتذكر حياته الأخرى لأول مرة منذ أمد غير قصير ٠ أكان أسعد حالا أم أتعس ؟! ٠ أكان أرفع منزلة أم أدنى ؟ ٠ أكان يحترق بغضب الآخرين أم نعم بسلام دائم ؟! ٠ من أى جهة جاء وأى جهة قصد ؟! ٠ لكنه عبر ذلك بسرعة وكاد ينسى كل شىء لولا أن سألته فى مجلس الليل :

ـ فيم تفكر يا عبد الله ؟!

فأجاب بسرعة :

ـ لا شىء ٠٠

ـ كنت فى النهار كالمسافر ٠٠

وذابت ارادته تحت نظرة عينيها فاعترف لها بتساؤلاته ٠ فنظرت الى السقف المنقوش بزخارف متداخلة لا يعرف لها أول ولا آخر ، وقالت :

ـ انها أول اهانة أتلقاها منك ٠٠

فهتف بجزع :

ـ خواطر فارغة ولكن لى عذر ٠

ـ لا عذر لك ٠٠

ـ تقبلى أسفى ٠٠

فتساءلت فى عتاب :

ـ ماذا تريد أكثر مما أعطيتك ؟

ـ لا شيء ٠

ـ ولكنك تحوم حول تساؤلات عقيمة ، وهذا هو الحمق ٠٠

ـ نطقت بالحق ٠

ـ لا تكن منافقا كالآخرين ٠

ـ بل نطقت بالحق وما أطمح الا الى دوام ما أنا فيه ٠٠

فقالت بحدة :

ـ ستعرف مجهول حياتك ذات يوم وسوف تندم ٠٠

شعر بأنها امرأة محبة وغيور ، ونعم ليلتها بسعادة صافية ، وعندما ساد الظلام خطر بباله سؤال « ترى هل الندم هو الجزاء الأوحد لمعرفة المجهول من حياته ؟! » ٠ ولكنه رغم الظلام ، وهبوط النوم ، خاف أن تفضحه نظرتها النافذة ٠ وانغمس فى حياته باصرار ، وركز على سماع الأغانى والنكات ، وتجنب

ما استطاع نثار شـواظ الغضب الهـادر وتمنى أن تمضي حيـاته هكذا أبدا • على أن الحيـاة مضت في طريقهـا على أي حال ، وانتهى الخريف كمـا انتهى الصيف من قبل وان لم ينته في غفلة كاملة • ولا بنفس السرعة • ولكن الليل طال وتلفعت بواكير الصـباح بالظلمة وزفرت في الأبدان قشعريرة • وتأخر شروق الشمس حتى انقشاع الغمام وجادت السماء بمطرة واحدة • وغير ملابسه الداخلية والخارجية وتواصل التغيير فشمل أشياء كثيرة • تسلل التغيير في خطوات غير مسموعة ولولا حساسيته ومخاوفه الدفينة لأفلت منه تماما • وزاد من قلقه أن التغيير ينبثق منه ، من أعماقه ، ففتر حماسه لمجلس الليل الذى لا يعد بجديد ، وغدا الاستسلام للنوم ألذ من السهر ، وتمنى لو كان له أصحاب يسامرهم في المقهى حتى منتصف الليل • وانطفأت بروق كثيرة تحت عباءة العـادة الثقيـلة ، فاسـتيقظ الفكر وخبت شـعلة العواطف والغـرائز ، وخاف أن يقف كالمتهم بين يديها ، أن يتلقى من عينيها السوداوين نظـرة سـاخرة ولكنه وجدها تسـايره بارتياح وعفوية • وتشغل عن اللهو والزينة بالتفكير في العمـل أو باستقبال بعض العمـلاء ثم يأويان الى النوم آخر الليل مثقلين بالتعب • توقع منها مطاردة محرجة فوجدها تغوص في العقل والهدوء واللامبالاة •

وفجر ذلك قلقه ولم يطمئنـــه ، ورأى فيه نذير شر ٠ وصمم على افتعال العاطفة وبعث الرغبة المرهقة مهما كلفه ذلك من جهد جنونى ٠ ولم يحظ ذلك من الطرف الآخر بعطف فأعرضت عنه مرات فى استياء لم تحاول اخفاءه ، حتى قالت له مرة :

ــ دع الأمور تجرى على سجيتها ٠٠

عند ذاك أضناه الحياء والألم ٠ وندم على ما فرط منه من اندفاع جنونى أحمق ٠ كأنمـــا كانت كل ليلة هى ليلة الوداع ٠ وبات ذلك الفتور شـــغله الشاغل فنسى كل مأساة الا مأساة الحب ٠ هل يفقد هذه القوة العجيبة كما فقد الذاكرة ؟ ٠ وهل يجرى عليه ما جرى على أزواج نعمة الله السابقين ؟! ٠ وجعل يقوم بعمله فى الوكالة بعقل غائب ووجه نضب فيه معين السرور والمرح ٠ ولحظ أن عبدون فرجلة يتابعه بشماتة ، وأن نظرات رياض الدبش وحلومة الجحش تبرق بأضواء فرح شرير ٠ ما أكثر الذين ينتظرون على لهف نهايته ٠ ولكنه سيخيب الظنون ويبدع فى مجرى الحوادث ما لم يبدعه أحد ممن سبقه ٠ سيظل الفتى المرموق فى هـــذه الحارة التى يحترف أهلهـــا الشكوى والعويل وتردد أغانيها أنات الهجر والحرمان ٠ وشـــعر بحاجته الى صديق يشاوره ٠ ولكن لا صديق له فمن يشاور ؟! ٠ وخطر له الطبيب محسن زيان فذهب الى العيادة فكان

أول زائر فى الصباح . قابله مخلوف زينهم كغـريب فقال له عبد الله :
ـ السماح من شيم الكرام يا عم مخلوف .
فقال له الكهل باستياء :
ـ انى أعلم متى ينسى أمثالك ومتى يندمون .
وغادره الى حجرة الطبيب ثم عاد ليدعوه للدخول فى جفاء . نظر اليه الطبيب متفحصا ملابسـه البلدية الصوفية الفاخرة وابتسم ، ثم سأله :
ـ جئت من أجل ذاكرتك ؟
فأجابه بصوت مهموس عما جاء من أجله . وطرح الرجل عليه أسئلة بخصوص عمره وعمله والأسلوب الذى اتبعه فى حياته « الزوجية » . ثم قال له :
ـ انه الافراط البعيد عن العقل .. والقلق النفسى .. تلزمك راحة جسدية ونفسية ..
فهمس عبد الله :
ـ والدواء ؟
هز رأسه نفيا وقال :
ـ سيضرك أكثر مما يفيدك ..
رجـع الى الوكالة مغتما وهو يلعـن الطبيب . وازدادت حاله سـوءا فحصر فى ركن مظـلم وغمغـم لنفسه « كأنه مصير لا مفر منه » . واذا بعبدون فرجلة يسأله :

ـ سلامتك · لماذا ذهبت الى العيادة ؟

فقال له بحنق :

ـ انتبه لعملك ، متى كانت صحتى تهمك ؟!

فقال الشاب متظاهرا بالجدية :

ـ سمعت الشيخ كافور يقول يوما « لا يملك انسان ما يستحق أن يحسد عليه حقا » ··

فصاح به :

ـ أنت كاذب ولم يخلِ قلبك من الحسد ساعة واحدة ··

وخيل اليه أن حكاية الاستشارة الطبية تلوكها ألسنة لا حصر لها فازداد انحصارا فى الغم واليأس وغمغم لنفسه مرة أخرى « كأنه مصير لا مفر منه » · وفى هذه الدوامة المظلمة المنذرة بسوء المصير انساق بقوة الى التفكير فى المجهول من حياته · فقد يجد فيه المأوى اذا افتقد مأواه ، وقد يجد فيه العزاء اذا عز العزاء · هذه الحياة المتاحة تنسرب من يديه كالماء ، لم تعد حقيقة ثابتة ولكنها حلم تحدق به يقظة الصباح القريب ، وسوف يجد نفسه وحيدا منبوذا ضائعا ان لم يهتد الى حقيقته الغائبة · انه صاحب حياة ماضية ، تمثلت فى أهل وعلاقات وأناس ، تجسدت فى حى من الأحياء القريبة أو البعيدة ، وثمة عمل ارتزق منه ، وربما زوجة وأبناء ، وثمة هدف دعاه الى المجىء الى

هذا الحى ، وحدث ما دفع به الى القبو حيث وقع له ما وقع ففقد كل شىء · ترى ما السبيل الى الكشف عن تلك الحقائق الغارقة فى الظلام ؟ ! · وقد سمع ما يقال عن نشر صور المفقودين فى الصحف فلم لم يجد أحد فى البحث عنه ؟ · وهل ينشر هو صورته باعتباره فاقد الذاكرة ؟! · تردد طويلا أمام هـذه الفكرة لخطورة عواقبها · أجل قـد دار الحديث يوما فى المقهى عن هارب تبحث عنه الدولة لتشنقه ، كما سمع آخر يقرأ اعلانا لأسرة موجها لابن هارب تقول له« يا فلان ·· عد الى أهـلك ، جميع طلبـاتك مجابة ! » ، فالى أى الفرعين ينتمى ؟ ، وهل اذا نشر صورته انقضت عليه الشرطة أو تحققت أمنياته جميعا ؟ ، ماذا يكمن وراء البـاب المغـلق ؟ ! · تراجع عن الفكـرة وهو يزداد مرارة ، وشعر ــ كما لم يشعر من قبل ــ بحاجته الى الصديق أو فى الأقل المشير · لم يفكر فى نعمة الله التى مضت توغل فى الغربة والبعـد حتى كاد ينكر المسكن تواجدهما معا تحت سقفه · ومضى الى العيادة ، ولما رآه الطبيب محسن زيان تساءل باسما :

ــ من أجل الحب أيضا ؟

فأجاب بضيق وهو يشير الى رأسه :

ــ من أجل الذاكرة ··

ففكر الرجل قليلا ثم قال :

ــ لو كنت تعيش فى بيئتك القديمة بين أهلك لساعد ذلك على الشفاء ، ولوجدت فى معْلم ما أو شخص ما يوقظك من نومتك الطويلة ، ولكنك مارست حياة تشجع على النسيان وتخاف اليقظة ..

فسأله يائسا :

ــ والعمل ؟

ــ لعل اصابتك عضوية ، ولعلها أكثر مما قدرت ، وفى هذه الحال يستحسن أن تستشير اخصائيا ، وربما أحالك الى طبيب نفسى ..

فقال بضيق :

ــ انه مشوار طويل .

ــ ويحتاج الى ارادتك فى جميع الأحوال ، وواضح أن صحتك ليست على ما يرام ، وسأكتب لك بعض المقويات كخطوة أولى ..

ولبث فى العيادة حتى غادرها الطبيب للغداء فوقف قبالة مخلوف زينهم قائلا :

ــ انى مصمم على نيل عفوك ..

فقال الرجل ممتعضا :

ــ لا ثقة لى فيك ولا فى غيرك ..

فقال بحرارة :

ــ لا أحد يستحق الثقة كما قلت ولكن كثيرين يستحقون العطف ..

ـ أنكرتنى والشمس تشرق ورجعت الى وهى تؤذن بالغروب ··

ـ اغفر لى ذنبى ومد الى يدك ··

فهبطت حدته درجات وهو يسأله :

ـ ماذا تريد ؟

ذهبا معا الى المقهى ، فأرسلا الصبى لاحضار غداء من شوربة العدس ولحمة الراس ، وجعـل يحكى له ما استجد فى حياته من شقاء ، وختم حكايته بنصيحة الطبيب محسن زيان · وكان يحدجه طيلة الوقت بنظرة كأنما تقول له « أرأيت عاقبة اهمالك لنصيحتى » · ثم قال :

ـ نهاية ابنى الشهيد معقولة أكثر من نهاية أمثالك ولكـن لا فائدة من الرأى أو المشـورة ، الجميـع مصـممون على تكرار الأخطاء حتى ولو لم يداخلهم أدنى شك فى النهاية يستوى فى ذلك من فقد ذاكرته ومن لم يفقدها ، والآن خبرنى علام عولت ؟!

فقال عبد الله بضيق :

ـ طريق الطب طويل وباهظ التكاليف ··

ـ وغير مجد فى هذه الحال بالذات ··

ـ والعمل يا عم مخلوف ؟ ·· هل أزور الشـيخ جابر عبد المعين امام الزاوية ؟!

فقال بغضب :

ــ لا هو امام ولا الزاوية زاوية ، انه رجل جاهل عينته نعمة الله لخداع السـذج ، وهى التى شيدت الزاوية من مال حرام للخداع أيضا ، انهـا لعبـة مكشـوفة ولن تجد عنده رأيا ولا شـفاء عدا بعض السور الصغيرة التى كان يرتلها فى المقابر كلما جاء موسم دون أن يفقه لها معنى ٠٠

فقال عبد الله بقلق :

ــ ولـكنى أخشى عاقبـة الاعـلان عن نفسى فى الصحف ٠٠

ــ معك حق ، فقد تكون أخطر مما تصورنا ، ولكن عندنا الشيخ كافور فهو من رجال الله ٠٠

ــ أهو يستعين بالسحر والعفاريت ؟

فقال مخلوف زينهم بازدراء :

ــ انى أتحدث عن كافور لا عن نعمة الله الفنجرى ٠

وكان كافور يقيم فى بدروم البيت الذى يقيم فيـه رياض الدبش الكواء البلدى ، فبدا جو حجرته فى لون الغروب أو الفجر ، وعبق بشذا بخور طيب ٠ وجلس الرجل فى الصدر على أريكة قصيرة الأرجل على حين غطى سطح الحجرة بحصيرة مطموسة اللون ٠ تربع مخلوف وعبـد الله على الحصـيرة أمـام الأريكة بلا استئذان ولا تحية ، وتفرس عبد الله فى وجه الرجل فلم

يميز ملمحا من ملامحه ولا حتى لون وجهـــه ٠ وقال مخلوف :

ـ هذا ابن ضال من أبنائنا يدعى عبد الله ٠٠

فسأل صوت عميق هادىء رغم خفوته :

ـ ما اسم أمه ؟

ـ لا يعرف أما ولا أبا ٠٠

فمد الشيخ يده فهمس مخلوف فى أذن عبد الله :

ـ ضع يدك فى يده ٠

فصدع بالأمر وهو يتلقى قشعريرة هيبة أو خوف٠ وسرعان ما سرت من راحة الشيخ اليه برودة لطيفة أنعشته فتركز فى أذنيه ، ومضت دقائق نسى فيها كل شىء حتى ما جاء من أجله كأنما امتص الرجل وعيه كله ثم تردد الصوت العميق الخافت قائلا :

ـ ستعرف ما تسأل عنه فى حينه بالتمام والكمال ٠

وسحب يده قائلا :

ـ اذهبا بسلام ٠

وغادرا المكان وعبد الله يراوح بين الأمل والخيبة ٠ قال لصاحبه فى الخارج :

ـ ظننت أننى سأسمع أكثر مما سمعت ٠٠

فقال مخلوف زينهم :

ـ كلامه بالقطارة ، ثم انك غير مؤهل لفهمه ٠٠

ولما رجع الى الوكالة وجد نعمة الله تجالس شابا

لم يره من قبل ٠ شاب فى عزأبهة الشباب جميل الوجه
رشيق القـامة ٠ فهم من مجرى الحديث أن الشـاب
يقترح فتـح فرع للخردة فى الطرف الآخر من الحارة
وأنها تقترح عليه أن يكونا شريكين ٠ ولفت انتباهه
الحيوية التى تألقت فى نظـرات المـرأة وهى ترنو الى
الشاب مما ذكره بالماضى السعيد الذى ذهب ٠ وحانت
منه التفاتة الى عبدون فرجلة فقرأ فى عينيه الحادتين
فرحة شماتة صارخة فاشتعل قلبه بنار الغيرة ٠ ومن
موقفـه الذليـل مد بصره الى رياض الدبش وحلومة
الجحش فطـالع السـخرية مجسـدة فلم يشـك فى
وساوسه ٠ واقترحت عليه شياطينه حلا داميا ولكن
ضعفه المتصاعد أخجله ٠ ولم يتبادلا فى نهار العمـل
كلمة ، ولما أويا الى مسكنهما دعاها الى المجلس وأعد
بنفسه القـرفة والزنجبيل والمخدر ٠ توقع أن تتعلل
بعذر ما ولكنهـا استجابت له فى برود وفيما يشـبه
التحدى ٠ اضطرب لذلك أكثر مما سر ٠ وزحف عليه
خوف مجهـول ٠ غاب عن الحاضر المتـاح تماما ٠
واكتشف أن ضعفه بات عجزا كاملا ٠ سحب نفسـه
الى طرف كنبة واسترق اليها نظرة منكسرة وتمتم :

ـ انه الحزن وأنت السبب ٠٠

فقالت ببرود :

ـ انى بريئة والحزن برىء !

فقال بصوت متهدج :

ـ حديثك مع الشاب قتلنى ..

ـ ما مر يوم الا استقبلت فيـه أشكالا وألوانا من الشباب !

أدهشه صدق قولها وقال معتذرا :

ـ لعلى مريض .

فقالت بثقة :

ـ الحق أنك انتهيت !

سرت الحقيقة فى ذاته كالسم فلم يشك فى أنه انتهى ، وأن حياته فى جوارها توشك أن تنتهى أيضا . ولكن كيف يمكن أن تتنكر له بعد ذاك العهـد الطـويل من المعاشرة الحميمة والعواطف المتأججة والحب العميق المتبادل ؟! . ماذا تقول وماذا تفعـل ، وألا يخونهـا القول أو الفعـل ! . أى كلمات لم تسـمع من قبـل سيشيعه بها هـذا الفم الملىء بالرغبات والحزم ! . وتسلل اليها بنظرة خجلى مشفقة فبوغت بالتغير كأنه زلزال منقض بلا نذير . ها هو وجه جديد يطالعه . بلا تردد ولا حرج ولا مبالاة . يتجسـد فيه الرفض والانكار والقسوة . كأنما لا ماضى له ولا ذكريات . ولا وجدان ولا ضـمير . ولا ذوق ولا حياء . ذهـل وفزع فتمتم :

ـ شد ما تغيرت يا نعمة الله !.

فقالت ببرود :
ــ لقد تغيرت أكثر يا عبد الله ··
فتساءل بأسى :
ــ أينتهى كل شىء كأن لم يكن ؟
فقالت بضجر :
ــ أنت الذى أنهيته !
ــ لعلى مريض ··
ــ ولا أمل فى الشفاء ·
فهتف حانقا :
ــ انك أقسى مما يظن أعدى أعدائك ·
فقالت ساخرة :
ــ بل انكم لا تفكرون الا فى أنفسكم ··
ــ أليس للحب حق ؟
فقالت بنبرة ختامية :
ــ اذا مات فلا حق له ··

ونهضت متبرمة فمضت الى الخلوة وأغلقت الباب بقوة · لبث وحيدا مع برودة آخر الليــل واليأس · احتدمت الخواطر برأســه كفقاعات الماء المغلى فازداد يأسا وتسليما بالواقع · وبدت له أحلام سعادته كذبة فاجرة قاسية · ومن شدة العناء والارهاق هرب فى النوم ساعة واحدة · وفى الصباح الباكر هجر البيت متلفعــا فى عبــاءته السوداء ، حامــلا بيسراه حقيبة

متوسطة الحجم · كانت الشمس ترسل أول طلقة من أشعتها الدافئة ، والحركة تدب فى الجنبات · فتحت نوافذ وأبواب وتتابعت أفواج الخلق · سار بخطوات وئيدة ثقيلة تغشاه مخايل الرحيل · رآه أول من رآه عبدون فرجلة فرماه بنظرة دهشة خلت من الحقد لأول مرة وسأله :

ـ أأنت راحل ؟

فأجاب باقتضاب :

ـ أستودعك الله ··

وترامت عبارته الى أقرب الجيران فقال رياض الدبش دون مبالاة :

ـ مع السلامة !

وتمتم حلومة الجحش :

ـ يا خسارة ! ·

وأثار رحيله اهتماما مؤقتا وشاملا · ورغم ارهاقه كان يرى ما تقع عليه عيناه بوضوح شديد فكأنه يراه لأول مرة فمازج نفوره حنين غامض · واعترضه عم مخلوف زينهم أمام الزاوية فتوقف دون أن يبتسم · سأله الكهل برقة :

ـ أأنت ذاهب حقا ؟

فحنى رأسه بالايجاب فسأله :

ـ الى أين ؟

فأجاب دون مبالاة :
ـ لا علم لى بشيء ..
ـ بوسعك أن تبقى حتى تسترد ذاكرتك .
فقال بمرارة :
ـ لا أستطيع ، وقلبى يحدثنى بأننى لن أعرف شيئا ما دمت هنا ..
فربت الرجل منكبه بحنان وقال مسلما :
ـ فى رعاية الله ..
وواصـــل المســير تتابعــه الأعين من النــوافذ والدكاكين والطريق . شيعته نظرات متضــاربة من الحيــاد والشــماتة ، العطف والكراهيــة ، السرور والحزن . واصل المسير حتى غيبــه المنعطف الأخير عن الحارة الى الأبد .

من فضلك وإحسانك

(رأيت فيما يرى النائم)

اكتشف الحب ، أو اكتشفه الحب ، أول عهده بالمرحلة الثانوية . فى الخامسة عشرة كان ، وفى الرابعة عشرة كانت . اتفقا على خطوبة غير رسمية يحتفظان بها سرا بينهما حتى يبلغ المرحلة الجامعية ، ثم تعلن وتمضى الأمور فى طريقها المعهود . وهو وسيم رشيق ذو سمرة صافية ، وهى فى نفس المستوى فى أعين الناس ولكن جمالها فى قلبه يتلألأ بأضواء مسحورة . ومع أن الأسرتين تقيمان فى عمارة واحدة بشارع مريوط بمنشية البكرى الا أنهما لم يتعارفا قط ولا تبادلا تحية عابرة ، فاستمد معلوماته القليلة عن أسرة حبيبته « جميلة » من حديثها . عرف أن أباها يدعى عبد الرحيم يسرى ، من ذوى المعاشات ، مترجم سابق بالخارجية ، تركز اهتمامه أخيرا فى العبادة ولعب الطاولة . أما أمها شامة لطف الله فهى مفتشة بالتربية والتعليم ، معروفة بالحزم بقدر ما هى مغرمة بالتلفزيون . ولها أيضا اخوة ثلاثة ، أكبرهم ضابط جيش استشهد فى حرب ١٩٤٨ ، ومهندس واقتصادى موظفان فى شركتين . ولم تكن جميلة متفوقة فى

دراستها ولكنه كان هو أيضا يماثلها فى ذلك . وكان مغرما بكرة القدم ويلعبها بمهارة لا بأس بهــا ، ولا يبدى أى اهتمام بالحياة العامة ، مثله فى ذلك مثــل أبيه وأمه ، بل مثل شقيقتيه المهاجرتين مع زوجيهما بليبيا والبحرين . لم يرتفع فى ذلك المسكن صوت لتأييد رأى أو معارضـــة رأى أو اعـــلان موقف ولا حتى كمتفرجين ، فلا مشاركة وجدانية وكأنما ينتمون الى كوكب آخر . تدور الأحاديث عادة عن المدرســـة ، المسلسلات التلفزيونية ، الكرة ، الطعــام ، أو شركة الأجهــزة المنزلية حيث يعمــل الأب ابراهيم الدارجى مراجعا للحسابات ، والأم بيسة فضــل الله فى قســم الاعلانات . رأى عبد الفتاح جميلة أول ما رآها فى شارع مريوط الذى يعترض طرفه الشرقى الشــارع العمومى المتجه الى مصر الجديدة . رآها بعد ذلك فى مدخل العمارة . شملهما من بادىء الأمر مناخ طيب يجود بالأنس والاستلطاف . وتبــادلا الابتســـام والتحيـــة ، وأعقب ذلك اللقاء فى الشــارع العمومى بعيدا عن الأنظار . انفجرت فى قلبه حياة جديدة بقوة ملهمة . فاعترف ، وتم الاتفاق على المستقبل القريب والبعيد ، وحملها أمانة كبيرة وهو يقول لها :

ــ لا حياة لى بدونك .

ولأول مرة يجاوز اهتماماته الصغيرة الى حيــاة

جديدة واعدة بثراء جديد ، ويحطم حاجز الانحصار الذاتى واثبا للغير • عاش عامين سعيدا ، عاش فى سعادة حقيقية ، ولكنها انسابت بخفة بلا تركيز أو وعى منه فلم يعرفها ـ مثل كثيرين ـ الا كذكرى • ذلك أن الحب تعرض للاغتيال • وهو نفسه قال « ليس لى قصة حب ، ولكن قصتى تبدأ بعد وفاة الحب » • تلقى منها رسالة بيد زميلة عاملة بسرهما تنبئه فيها بأنها خطبت ، وأنها عجزت عن انقاذ حبها ، وأنها حزينة أسيفة ولكن لا مناص من قطع العلاقة • قرأ وأعاد القراءة • هل يمكن ؟• بلا تمهيد ؟• وهذا الأسلوب ؟، قال للرسولة وتدعى بثينة أو قال على مسمع منها :

ـ أى جفاء •• انها برقية لا رسالة ••

فقالت الفتاة معتذرة عن صديقتها :

ـ عواطفها أكبر من ذلك لكنها لا تحسن الكتابة !

• وأخبرته أنها تألمت ، وأنها توسلت الى أمها أن تتركها وشأنها ، أن تتركها لتنتظره ، وأنها راضية بحظها ، ولكنها لاقت موقفا مصمما ، مسلحا بالحجج الواقعية الصارمة ، من تكاليف الزواج الباهظة ، وأزمة المساكن ، وعجز المرتبات ، وأنه لا أمل لشاب فى الحياة الزوجية ان لم يكن غنيا أو مهاجرا ، وأن الخطيب الجديد حامد بك مظهر هو مناسب جدا فى الظروف الراهنة • أجل انه فى الأربعين من عمره

ولكنه خبير ذو مرتب ضخم الى جانب نشاط خاص يدر عليه دخلا محترما ، فهو قادر وأهل للحياة الزوجية ، وفى كنفه ستحظى بالحياة الكريمة والسعادة الحقيقية ، لا السعادة الوهميـــة التى سرعان ما تتلاشى فى خلاء التقشف والضنك، وحذرتها من أن تظن بها الطمع، أو تخلط بينها وبين النموذج التلفزيونى للمرأة المادية التى ترفع المادة فوق العاطفة ، المسألة بكل بساطة أن الزواج ضرورى لها ــ لجميلة ــ وهو غير ميسر الا مع رجل مثـــل حامـــد مظهـــر ، ومن حسن الحظ أنه لا تشـــوبه شـــبهة من شبهات الانفتـــاح ، فهو قادر وشريف ، فلا مفر من التسامح فى عمره وهو على أى حال لم يجاوز السن المناسبة للزواج . ومضت بثينة تقول ان جميلة لم تستطع أن تقارع الحجة بالحجة . ولعلهـــا لم تتصـــور أن الأمور معقـــدة الى ذلك الحد فانطلقت تخاطب قلب أمها ، وقلب أبيها أيضا ولكن الأب قال لها « مسايرتك تعنى التضحية بك ، أقسم لك بصلاتى أنى صادق ، ليس ما تشعرين به هو الحب ، فى مثل سنك لا تعرف القلوب الحب الحقيقى، ستعرفين ذلك بنفسك » . وعند ذاك قالت له بثينة :

ــ لعله مما ساعدها على الاذعان أنها ستنقطع عن الدراسة فهو يريدها ست بيت ، وأنت تعلم أنها لا تحب المدرسة !.

تابعها عبد الفتـاح بذهول ثم ماج قلبه بالغضب والعـذاب ، وأصر على مقابلتها فكلف بثينـة باتمام ذلك · وجاءته فى أصيل اليوم التالى والخريف يقطر مناخا معتدلا · جاءت منكسرة الطرف تتعثر فى الخجل قابضة بأصابع متشنجة على منديلها الأبيض الصغير· حيته بغير ابتسام هامسة :

ـ انى آسفة ··

حثه منظرها على التمسك بها باستماتة غير أن نبرة صوته نمت عن الغيظ وهو يقول محتجا :

ـ تقتليننى ثم تأسفين ! ، ماذا أصنع بأسفك ؟

فقالت له بحرارة :

ـ حزنى أشد مما تتصور ··

فقال ساخرا :

ـ صدقت فيما يتعلق بتصورى ··

ـ لا تظلمنى ··

ـ أعلنى الرفض وأصرى عليه ··

صمتت فى حيرة جلية فطفر الغيظ الى قسمات وجهه وتساءل :

ـ ماذا قلت ؟

فقالت وهى تتنهد :

ـ لن نستطيع الزواج كما نتمنى ··

فقال مستسلما لغيظه :

ـ أعرف ما قيل وما يقال ولكن الحب أقوى من ذلك ..

فقالت وعيناها تدمعان :

ـ الواقع أقوى من أمانينا .

ـ المسألة أن حبك ليس بالقوة التى ظننتها .

ـ لا تظلمنى .

شعر بأنها لا تريد أن تعدل عن قرارها . انها لم تعد تحبه . انها لم تحبه قط . هتف غاضبا :

ـ أكذوبة !

تمتمت بانزعاج :

ـ ماذا ؟ .

ـ خاب ظنى فيك .

قالت بتوسل :

ـ لا تزد فى عذابى .

لوح بيده غاضبا فأصابت أنامله جبينها فتراجعت مذعورة . أفاق من غضبه . وثب نحوها قائلا :

ـ معذرة .. لم أقصد ..

ـ كفى ..

ـ أكرر الأسف ..

فقالت بصوت هادىء :

ـ يجب أن أذهب ..

فتحول عنها دون تحية . توغل فى الطريق صوب

الشـــمال والظلام يهبط ودفقــات من الهواء الرطب تهب • عجب من فراغ الوجود من كل شيء الا نبض الألم فى أعمــاقه • ألم وفراغ • فراغ وألم • ان يكن الحب مرضا فلا بد له أن يوجد له دواء • ولكن أين وكيف ومتى ؟ • وفكر فى أنه أخطأ فى تركها تفلت من يده فاستدار وراح يعدو ليلحق بها ولكنه لم يعثر لها عــلى أثر • ورجـــع الفـــراغ ورجع الألم • وحلم أنه يستطيع أن يقتل أمها فقرر أن يقطــع رأســـها تحت المقصلة • استحضر بخياله صورة المقصلة كما رآها فى فصل الثورة الفرنسية • يا للداهية !•• ما هـــذا الفراغ وما هذا الألم • ولأول مرة يعانى الوحدة وهو وسط أصحابه وهم يقضون الفترة الأخيرة من العطلة الصيفية • رغم أنهم جميعا على شاكلته ممن لايكترثون للحياة العامة وتستغرقهم الشئون الخاصة • وبدافع من كبرياء لم يبح لأحد منهم بسره • أما أكثر اليـــوم فخلا فيه الى نفسه فى حجرته الخاصة ـ للنوم والدراسة معا ـ غارقا فى التأمل • ولم يخرج من عزلته فى سهرة التلفزيون حيث تجتمع الأسرة وكأنها غير مجتمعة • غرق فى التأمل حتى وجد نفسه ولأول مرة يسأل عن معنى حياته أو عن معنى الحيـــاة • ومضت المعانى تتلاشى وتتبخر فى الهـــواء • وقلب عينيه بين جدران الحجرة وسقفها وكأنما يجول فى الكون ثم سأل :

ـ هل يوجد فى قلب هذا الكون هدف أو معنى ؟!

لو عرف هذا الهـدف الكونى عرف بالتالى معنى حياتنا . ولكن ما السبيل الى معرفة هدف الكون ؟ . كيف نحمله على البوح بسره ؟ . كيف ننقذ حياتنا من العدم ؟ ! . لم يجد نفسه فى هذا المقام الحائر نتيجة لثورة أو فكر ، ولكنه وجد نفسه فى خضمه بتلقائية من لا يملك ذخيرة أو تراثا . ذلك أنه نشـأ فى جو خاص غير عادى . جو خلقه والدان من نوع خاص أيضا . ابراهيم الدارجى الأب مشغول بالحياة لدرجة لم تترك له فراغا لتسـاؤل أو تأمل . انه أبعـد ما يكون عن الطراز المتدين ولكنه فى الوقت نفسه أبعد ما يكون عن النموذج الملحد أو الشاك . لم يتفوه طيلة حياته بكلمة مع الدين ولا كلمة ضده . الدين بالنسبة اليـه غير موجود أو مختف فى ظل كثيف ، ولا يخطر له ببـال ، ولا يتذكره الا فى المناسبات النادرة ، وقد ترد فى كلامه مصطلحات دينية يرددها دون أدنى انتباه الى مغزاها فيقول أحيانا « الله أعلم » ولا تعنى عنـده أكثر من « لا أدرى » . وعيد الفطر عنده كعك وعيد الأضحى « لحمة » . والأم بيسة لا تختلف كثيرا عن زوجها فى لا مبالاته الفطرية وان لم تخل من ايمـان بالشعوذة والسحر . فلم يعبق البيت بنفحة دينية ولو عابرة . هذا هو الجو الذى نشأ فيه عبد الفتاح . ولم تضف

اليه المدرسة سوى حكايات تحفظ وتنسى ، وألفاظ تشرح وتعرب ، وامتحانات يودعها محفوظاته قبل أن تتلاشى . وفى المدرسة عبرت أمامه ومن حوله تيارات متضاربة دينية ومادية ، فلم يهتم بها ، وسخر منها . ولذلك لم تتوثق الصلة بينه وبين أحد من المنتمين اليها واختار أصدقاءه ممن هم على شاكلته من اللامبالين . ومع ذلك هزته الهزيمة فوجم وتألم ولكنها لم تعدل به عن طريقه بل لعله أوغل فيه أكثر وأكثر . من أجل ذلك كله وثب فى أزمته الى الكون يسائله عن معناه وهدفه بتلقائية ويسر دون أن تعيقه عن ذلك عقيدة سابقة . تعلق بالكون باعتباره الأمل الأخير الذى يمكن أن ينتشله من الفناء الزاحف على قلبه وروحه . ترى هل يوجد سر ذلك عند أحد من البشر ؟ . هل تتضمنه حكمة أو علم أو فلسفة ؟ ، وأليس مما يفزع أن ترتفع فجأة من كرة القدم الى قلب الكون دفعة واحدة ؟! . وتوهم أن عالمه الداخلي يتوارى عن الأعين القريبة بما يفور فيه من تساؤلات حارة مستميتة ولكنه لاحظ فى أعين والديه محاولات أبوية قلقة تروم النفاذ الى أعماقه . وضح ذلك يوم الأحد ـ يوم العطلة الأسبوعية ـ عندما دعواه للجلوس معهما فى حجرة المعيشة عند الضحى . توقع فى الحال استجوابا حميما فضاق به قبل أن يعلن . وصدق حدسه عندما تساءل أبوه

وهو يغوص بروبه الخفيف فى الفوتى الأرجوانى :
ـ مالك يا عبد الفتاح ؟!
فتظاهر بالدهشة لغرابة السؤال فقالت أمه :
ـ لست كعادتك ، لا خفاء فى ذلك ..
وقال أبوه :
ـ بعد أيام معدودة سيبدأ عام الثانوية العامة ، وهو عام يتقرر فيه المصير !
وقالت بيسة :
ـ ونحن أصدقاء ولا يجوز أن يحجز بيننا سر ..
قال محاولا الاحتاظ بسره الغريب لنفسه :
ـ أنتما واهمان ..
فقال الأب وأنامله تناجي حبات سبحته القهرمانية التى تلقاها هدية واستغلها لامتصاص القلق :
ـ بل ان صحتك ليست على ما يرام .
ـ أشعر بتمام الصحة والعافية ..
ـ انك تمر بفترة من العمر شديدة الحرج ..
ضحك ضحكة جافة . تغير موقفه بغتة . جرفته موجة استهانة كرد فعل للسهاد والألم . قال :
ـ الحق أنه يشغلنى سؤال محير !
ـ أى سؤال يا بنى ؟
قال ممهدا بضحكة كالاعتذار :
ـ سؤال عن الهدف الكونى !

تفشى صمت ثقيل حتى صار له دوى فى الآذان ·
نظر والداه اليه طويلا ، ثم تبادلا النظر طويلا · وتمتم الأب متسائلا :
ـ الهدف الكونى ؟!
فتساءل عبد الفتاح :
ـ هل أندم على مصارحتكما بالحقيقة ؟
فقالت بيسة بسرعة :
ـ أبدا ·· ولكننا لم نفهم ··
فقال بتحد :
ـ انى أسأل هل فى الكون هدف !
فتساءل أبوه :
ـ الكون دفعة واحدة ؟
ـ الكون دفعة واحدة ·
ـ الكون شيء فوق التصور ·· ماذا يهمك من ذلك ؟
ـ لن أعرف هدف حياتى ، ان لم أعرف الجواب ··
قال الأب برقة وبجهد :
ـ انك كمن يريد أن ينتقل الى مصر الجديدة عن طريق مدينة الكاب بجنوب أفريقيا · لم لا تستعمل هذا الطريق الممهد الذى نراه من نافذتنا ؟
فقال بيأس :
ـ لا معنى لحياتى ان لم أعرف ذلك الهدف البعيد !
فرمقه ابراهيم الدارجى بحنان وقال :

ــ عليك أن تنجح فى الثـانوية العـامة ، وأن تحرز المجموع الذى يفتح لك أبواب الكليــة التى تريدها ، وأن تعمل ، ثم تتزوج وتنجب ذرية ، وتستمر فى التقدم حتي تنعم بمعاش مستقر سعيد ، هل يوجد هدف وراء ذلك ؟!

فتساءل بامتعاض :

ــ وماذا بعد المعاش المستقر السعيد ؟ !

فقال الرجل وهو يكظم غيظه :

ــ يجرى علينا ما جرى على الناس منذ آدم !

فقال عبد الفتاح بعصبية :

ــ معنى ذلك أنه لا يوجد معنى يستحق أن نعيش من أجله !

فتساءل الأب ضاحكا :

ــ لا بد من معرفة هدف الكون ؟!

ــ وإلا فلا معنى لشىء على الاطلاق ..

ونمت نبرة الرجل عن غيظ مكتوم وهو يقول :

ــ وكيف تعرف هذا الهدف ؟ ، كيف تتابعت الأجيال دون أن تعرفه ؟ ، وهل تؤجل امتحان الثانوية العامة حتى تعرفه ؟!

فقال الشاب فى حزن :

ــ أعرف أنه ســؤال مثير للسخرية ولكنى وقعت فى قبضته ..

فقالت بيسة بجزع :

ــ لا تقل ذلك ، عليك أن تنقذ نفسك ..

وقال أبوه بحرارة مدافعا اليأس :

ــ حتى لو وجد جواب فهو لن يجىء بين يوم وليلة .

فصمت عبد الفتاح فواصل الرجل برجاء :

ــ لا خلاف فى ذلك ، فلنبدأ بالممكن ..

قالت الأم وهى فى غاية من القلق :

ــ لنبدأ بالممكن ..

فواصل الأب :

ــ بوسعنا أن نخلق هدفا لحياتنا وأن نحققه ، ولك ألا تكف عن التفكير فى الآخر ، ومن يدرى فربما عرفته بعد عمر طويل !

وتنهدت الأم فى ارتياح قائلة :

ــ حل موفق ، أليس كذلك يا عبد الفتاح ؟!

وقال الأب برجاء حار :

ــ أعلن موافقتك أرجوك ..

ابتسم ابتسامة شاحبة فى استسلام . اقتنعت الأم بأنه اقتنع . قالت بفرحة طفولية :

ــ سنسهر الليلة فى الميرى لاند ، لم نسهر معا منذ مدة ، أمامنا عشاء ساهر وشراب منعش ..

وعند العشاء شرب قدحين من النبيذ فتلقى نشوة

فرجت كربه وأشعلت ضوء الابتسام فى ثغـره وعينيه حتى قال الأب لنفسه مستوهبا العزاء :

ـ سحابة وانقشعت ..

ووجد الشاب نفسه ترحب بالحل الموفق . ربمـا هربا من المأزق الخانق الذى يهدد بالشلل . وحمـل والديه مسئولية تراجعه السريع تفاديا من الاعتراف بالهزيمة . رأى أن يطوى اليأس فى ركن من نفسه وأن يرسم لحياته خطة كالآخرين ، ومن يدرى فقد يدهمه الجواب من أعماق الحياة نفسها . وما الهدف الذى يختـاره ؟ . كلية الطب ، حيـاة ثرية من الناحيتين العلمية والمادية ، زواج وانجاب ، وان يكن النـاس يتساوون فى الموت فانهم لا يتساوون فى الحياة ولا فى الذكر . المهم الآن أن يمحق من قلبه جميلة وخيانتها ، وأن يقتلع الحب من جذوره ليستعيد توازنه . وتمنى أن تزف الى حامد مظهـر سريعـا لعلـه يداوى الألم باليـأس . وحدث ذلك فى الأسـبوع الأول من العام الدراسى . وقف عند ملتقى شارع مريوط بالشـارع العمومى ليلقى نظرة على موكبها الصغير وهو يميل نحو مصر الجديدة . وبالرغم من توقعه لذلك وتعجله له فقد أصابته هزة عنيفة فاقت تقديره وتخيله . سهر ليلتهـا فى حجرته حتى الصباح على ضـوء بطـارية صغيرة . قضى أكثر الوقت واقفا أو ذارعا الحجرة

أو مرسلا طرفه من النافذة الى الليل الشامل . ومن خلال تجربة طارئة التحم بأثاث حجرته التحاما غريبا جنونيا . ومضى فى التجربة على رغمه كأنما يؤدى طقوسا لأوثان وقع تحت سيطرتها بقوة سحرية . جذب الفراش عينيه بدعوة نابعة من الصميم . وكأنه يكتشف لأول مرة الفراش الخشبى ذا اللون البنى الغامق ، والملاءة البيضاء والغطاء البنفسجى المطوى للنصف . وبادامة النظر الى الفراش ومحتوياته دبت فيه ـ الفراش ـ حياة من نوع ما ، فتبدت الوسادتان لعينيه ترنوان اليه ، وشملت الملاءة والغطاء ألفة قديمة لا تكون الا بين الأصحاب . ونفذ بصره الى الأعماق فرأى القطن المكدس فى الحشية وراح يعد خيوطه الملتفة المضغوطة وهو يشعر بأنه سيختم الاحصاء بوثبة فى المجهول قد لا يرجع منها . وتفرس فى مكتبه فى الجانب المقابل من الحجرة وهو يحمل صفين من الكتب يفصل بينهما السوبان فرآه يبادله النظر داعيا اياه الى سماع حوار حار دائر بين الكتب لم يكد يلاحقه من سرعته وحيويته وما ينذر من خطورة متعددة العواقب . ومد بصره الى مرآة الدولاب القائم بين المكتب والفراش فعكست له صورته على ضوء البطارية الخافت جسما بلا رأس ، ومن عجب أنه لم يدهش لذلك ولم ينزعج ولكنه فتح الدولاب كأنما

ليبحث عن رأسه في داخله فرأى بدله المعلقة مشتبكة في معركة بالأيدى والأرجل فتراجع الى فوتي يتوسط الجدار المواجه للدولاب وانحط عليه وأغمض عينيه فانفجرت في رأسه خواطر مضطربة متلاطمة لم يستطع أن يمسك بواحدة منها متكاملة اذ سرعان ما تتلاشى في أخرى مؤججة رغبة متصاعدة في الامساك بأى شيء ذي شكل سليم واضح ، وظل فريسة الأطياف حتى نضحت النوافذ بضوء الصباح المترع بالخريف ٠ انطوت الليلة ولم تتكرر وعزم على أن ينفذ خطته المرسومة ٠ غير أن الكون لم يغب عنه تماما فكان يزوره من حين لآخر مذكرا اياه بحزنه المخزون المؤجل ٠ وبالمثل كانت تهب عليه نفحات من صحراء الحب المهجور ، ولكنه مارس حياة ناجحة فيما عدا ذلك وبشرت حاله ببلوغ المرام ٠ ولما أعلنت نتيجة الثانوية العامة جاءت مخيبة للآمال ، آمال آل الدارجى، ومن خلال التنسيق ضاعت الطب والهندسة والعلوم فلم يجد الا الحقوق لانقاذ ما يمكن انقاذه وكانت تقبل عددا محدودا من الثانوية علمى ٠ جاءت النتيجة صدمة لابراهيم الدارجى وقال وكأنه يدافع عن كرامته الشخصية :

ــ هذه النتيجة تقطع بأنك لم تكن في أحسن أحوالك ٠

وقالت الأم :

ــ رأيى أن تعيد السنة ٠٠

ولما كان أدرى بذاته فقد قال بتسليم نهائى :

ــ لتكن الحقوق !

ولم يشأ أحد أن يضغط عليه فقال الأب :

ــ على أى حال أمامك فرصة للعمل فى النيابة ٠

أما هو فقال لنفسه بمرارة « فشلت الخطة » ٠ واعتمد فى عمله على ارادته وحدها ، وبلا دافع حقيقى ٠ أجل شفى من الحب وتحرر من قبضة الكون ، ولكنه لم يقهر الفتور المستقر فى همته ٠ ومضى فى طريق النجاح الذى لا يبشر بأى تفوق أو امتياز حتى حصل على ليسانس بلا تهانى ٠ وعن طريق توزيع القوى العاملة ألحق كاتبا بالنيابة العمومية ٠ حزن الأب ابراهيم والأم بيسة لذلك حزنا شديدا ٠ انه الابن الوحيد ، والحلم الكبير ، وها هى النهاية تتجسد أمام عينهما كتمثال للخيبة ٠ وفاق حزنه حزن والديه ولكنه لم يدر بأى لسان يحتج على مصير صنعه بيديه ٠ بل ذكر بكآبة أنه لم يمارس التفوق فى حياته أبدا ٠ وأن الأرجح أنه لا يستطيع أن يخلق لحياته هدفا خيرا من هذا ٠

وقال لأبيه :

ــ أكثرنا الحديث يوما عن الحياة والهدف ولكننا

نسـيـنا أمرا هاما ، خبرني الآن هل تعـرف أحدا من الكبراء القادرين على تجديد الأهداف ؟!

فقال ابراهيم الدارجى بامتعاض :

ــ نشـاطى يجرى فى مجال آخر ، ولكن صـبرا ، ستهاجر ذات يوم لعمل مثمر فى الخارج ..

تمثل له « الخارج » فى صورة منارة تشع نورا من بعيد . وراح يوازن بين مرتبه الجديد وبين مصروفاته التى تعود عليها فى كنف والديه ثم تساءل كيف يواجه الحياة لو غاب والداه ! . ولأول مرة يشعر شعورا ذاتيا كم أنه فقـير وكم أن الغـلاء وحش مفترس . وتذكر فى الوقت نفسه الفارق الهائل بينه وبين رئيسه المباشر رغم أنهما متخرجان فى كلية واحدة . ما هو الا ذرة رمل فى صحراء التفاهة . وسيمضى من سيىء الى أسوأ . وما الراحة التى ينعم بها الا هدية مهداة من والديه العـاملين . عليـه ألا يركن الى الطمأنينة العـابرة الخادعة ، وأن يفكر فى المسـتقبل بجدية . تلزمه وثبة قوية غير معقـولة . طفرة غير متـوقعة وغير منطقية . بأى ثمن يجب ألا تضيع الحياة هباء . ونحن فى زمن الخوارق . ولكنه لا يحب أيضا المغامرة ولا يحب السـجن . ولا يجوز انتظـار المعجزة من « الخارج » وحده فقد يطول الانتظار، وخبرته لا يحتاج اليها « الخارج » مثل الخبرات الأخرى . الطريق شبه

مسدود ولكن اليأس يعنى الموت • وحام خياله المحموم حول حيــــاة النجوم من الممثلين الذين يمــرقون الى الهدف بسرعة الضوء ، وربما من خلال فيلم واحد • لا وقت للطريق الطويل ولا قلب للمغــامرة المحفوفة بالخطــر • وغطى عمله الجديد على أحلامه المؤرقــة فكشف له عن عالم من التجارب الطاحنة • انه يجلس الى يسار المحقق باســطا أوراقه على المكتب ، متطلعا الى المتهمــين الواقفين أمام المكتب • يرى ويســمع ويســجل • وتنهمــر فوقــه عوالم الأسرار • تراخي التحامه بأحلامه أمام المهربين والمختلسين والمرتشين واللصوص • انهم أناس لا يختلفون عن الآخرين فى أشكالهم وأصواتهم ، لا سمات تقليدية لهم مثل أشرار السينما ، ووراء كل واحد منهم حلم يذكره بأحلامه ، كلهم ينجذبون الى أضواء الحياة كما تهيم الفراشات حول المصباح • وهم يذكرونه بنفســه ، ويذكرونه بأبيه وأمه أيضا • وعجب لذلك بقدر ما انزعج له • لم يذكرونه بوالديه ؟! ، ربما لتشابه فى الوظيفة ، أو الاهتمامات ، أو المحركات العارضة • ووجد نفســه يتســاءل لأول مرة هــل يتناســب دخــل والديه مع مصروفاتهما ؟ ! • انهما فى الواقع لا يكترثان للغلاء ، ولا يخلو أسبوع من وليمــة تقــام للأصــدقاء ، وفى العامين الأخيرين جددا أثاث الشقة واقتنيا عددا من

التحف والسجاجيد والنجف لا يستهان به • حقا أنهما لم يشتريا شيئا ذا قيمة ثابتة كعقار أو سندات ولكنهما ينفقان عن سعة باتت تثير فى نفسه الخوف والكآبة • شك فى والديه وغزاه هم جديد انضاف الى همومه الشخصية • وتعملقت همومه عندما أدلى اليه زميله عبد اللطيف محمود ـ كاتب يسبقه بأقدمية خمس سنوات ـ برأيه فى طبقات المجرمين • وكان عبد الفتاح قد تلقى تدريبه فى العمل على يديه ، ولما آنس اليه همس له برأيه وهو أن القانون لا يطبق الا على العاديين من الناس أما الأقوياء فيسبحون فوق القانون ، الا فيما ندر ولا يقاس عليه • لم يصدق ولم يكذب ولكنه مال الى سوء الظن • كما مال الى اتهام والديه • وتساءل كيف يجنبهما المصير الأسود ؟! • وطرح السؤال يعنى فيما يعنيه أن شكه فيهما انقلب حقيقة من حقائق حياته المرة ، ولذلك دارى رعبه بضحكة لا معنى لها • واهتدى الى خير وسيلة لتحذيرهما وهى أن يقص عليهما لدى كل مناسبة طرفا من أخبار المنحرفين الذين يسجل إعترافاتهم يوما بعد يوم ، ويشهد عن كثب دموع البعض وهى تنعى آمالهم الخائبة • تصور ببدن مقشعر والديه وهما يزحمان مع الآخرين طرقات المجمع القضائى مثل حبات البن المتدافعة فى وعاء الطاحونة • وجعل يرقب

الاثنين بامعـــان ويتفحص ضيوفهمـــا من الرجـــال والنساء . جميعهم أناس أذكياء وبلا مبادئ ، المال معبودهم ، والنجاح دينهم ، والمغامرون هداتهم . يشوهون الأسماء الرنانة دفاعا عن أنفســـهم وتبريرا لسلوكهم الخفى . ويقول لنفسه :

ــ برح الخفاء !.

وازداد صـــدره انقباضـــا . ترى كيف يتحمـــل المصيبة اذا وقعت ؟! . انها خليقة بتدمير أى شخص حتى ولو لم يكن من التافهين . وتنهد وهمس لنفسه « الا شخصـــا واحدا » ، ورجـــع يحـــوم حول النجم ونجاحه وكيف يتـــألق ويواصل التـــألق ولو تسربل بالفضائح ! ، شد ما تداعبه هذه الفكرة . وتجفـــر سراديبها فى وجدانه برشاقة واغراء . غير أنه نحاها الى حين ليجرى مع ذاته تحقيقا فريدا . هل يقدم على الانحراف ان وعده بتحقيق الآمال ؟! . وراح يتفحص أعماقه بصدق وصراحة . وتبين له أنه لا يملك مناعة ضد الانحراف فى ذاته ، ولكنه جبان يؤثر السلامة !. عـــلى ذاك ترك الموضـــوع دون حســـم . واذا بمكتب التحقيقات يسوق اليه تجارب جديدة ومثيرة ، فيكشف له التاريخ عن وجهه ويريه من آياته ما جهل . حقـــا عرف الكثـــير من خلال قضية اتهم فيهـــا بعض رجال العهد المـــاضي بالتآمر على قلب نظـــام الحكم . رأى

وسمع وســجل ورجع الى شــارع مريوط بمعلومات جديدة عن ماضى بلده القــريب · واستســلم لأحلام اليقظة فتخيل نفسه بطــلا من أبطال العهــد البائد ، فخاض المعارك المنقضية ، وأحرز انتصارات لم يعد أحد يذكرها بالخير · وتساءل وهو منفــرد بنفســه فى حجرته :

ـ لماذا أتعاطف دائما مع المتهمين ؟!

وزودته أحلام اليقظة بوقود جديد بظهــور متهمين معاصرين على المسرح ، من ذوى العقــائد الدينية ، وذوى العقائد المادية · أذهلته جرأتهم ، واستهانتهم بالعواقب ، وتحديهم التحقيــق والمحقق · لأول مرة يتلقى تلك المبادىء كتجارب حيــة ممثلة فى أحيــاء ، كحجج تفوح برائحة اللحم والدم ، كتضحيات تستهين بكل غال · فيم يختلف عن هؤلاء الشبان ؟! · كيف افترقت الهويات والمصائر ؟! · وركب الخيال فجرد سيفه حينا ، وقبض على المطرقة حينا آخر ، وهام فى وديان المجد المخمور · هام طويلا حتى أدركه الارهاق والملل · وعاد يتساءل :

ـ كيف أستخلص نفسى من مستنقع التفاهة ؟!

الهجرة ؟ ، النجومية ؟ ، الانحراف ؟ ، الماضى ؟ ، الله ؟ ، الثورة ؟ · المهم أن ينجو من الواقع الكئيب · واتفق فى ذلك الوقت أن أهــداه الأب ابراهيم حجرة

جديدة عصرية بطاقمها المكون من الفراش والدولاب والشيفونيرة والتواليت وسجادة فرنسية • قال له :

ـ تغيير الجو يجب أن يساير تغيير الشخصية •

فغمغم :

ـ أى شخصية ؟!

وفكر فى ثمــن الحجرة فاســتعاد شكوكه بمرارة جديدة • وقرأ الأب صــفحة وجهه فاستشف معــانى أخرى فقال :

ـ الهجرة آتية فاصبر قليلا ••

الصبر جميل لكنه مر • ولم ينقطع عن التفكير فى البدائل المتاحة • وســمع زميله عبد اللطيف محمود ينصح ضيفاً بالانضمام الى حزب الأغلبية • ولم يكن يفرق بين جده ومزاحه ولكنه أنصت اليه وهو يقــول للرجل :

ـ الانضمام يضمن لك التمتع بحقوق الانسان !

فكر أنه بوسعه أن ينضم ولو الى لجنة الحى ولكنه حزب ضخم يحوى الملايين وهيهــات أن ينتشــله من ضياعه ، أو يخرجه من شرنقة التفاهة • فرق كبير بين أن تركب سيارة ولو صغيرة وبين أن تنحشر فى أتوبيس • فى الوقت ذاته فانه من الجنون أن يسعى الى أهل الدين أو أهل المادة فيعرض نفسه للهلاك ! • كلا ، انه لم يخلق لذلك • ولم يبق أمــامه الا الهجــرة أو

الفن ! • وانبعثت فى نفسه وثبة متحدية ذات مساء وهو يحتسى قليلا من النبيذ فى تافرنيا • رقصت النشوة فى رأسه فانساب طموحه الحائر فقرر أن ينفلت من قبضة الأحلام وأن يفعل شيئا • سعى الى مقابلة بعض المخرجين وعرض عليهم نفسه كقانونى يهوى التمثيل، مستمدا من شكله وحجمه ثقة وأملا • قال له المخرج :

ـ لا يمكن تشغيلك الا اذا كنت متخرجا فى المعهد ••

فقال بثبات :

ـ يمكن كوجه جديد مرشح للبطولة !

ودعى الى الاختبار • ولولا اليأس ما تغلب على ارتباكه • وكان يترك عنوانه ويذهب • وينتظر ثملا بأحلام اليقظة بعد أن حل البلاتوه محل الجهاد والفردوس الأرضى • ولكنه لم يرده خطاب • وطال انتظاره حتى شطب فرق الفن فى سجل آماله المتهاوية أسوة بالنشاط السياسى كله فلم يبق الا « الخارج » كأمل أخير • وسأل أباه ذات مساء :

ـ لا أخبار عن الهجرة ؟

فأجابه بوجوم :

ـ انتظر الوقت المناسب !

التقط احساسه المشحوذ بسوء الظن نبرة جديدة فى صوت أبيه • نبرة توحى بالهزيمة • انظر جيدا • ليس الرجل كعادته ، ولا أمه • انهما يعانيان قهرا

مجهولا تبدى فى نظـرة العين ، وشـهية الطعـام ، والحديث . وقال لنفسه « هل يتلاشى الأمل الأخير ؟ . سيقع شيء غير سار » . وصدق حدسه فأعلن أبوه أنه طلب احالته على المعاش لسوء حالته الصحية ، ولحقت به أمه فى نفس الأسبوع معتـلة بنفس العلة ! . ذهل عبد الفتاح وهمس له سـوء ظنه بالحقيقة الخفيـة : لا شك أنهما اضطرا الى ذلك اضطرارا وتفـاديا من عاقبة أسوأ . الصحة بريئة تماما ، كانا من أحسـن الناس عافية ومرحا . وجاراهما فتظاهر بالقلق على صحتهمـا واسـتمع الى حديث طـويل عن الضغـط والطبيب ، وقال بحرارة مصطنعة :

ـ الصحة أهم من العمل والمال ..

وتوقفت حياة الترف المعهودة . انطفأت الشعلة ، وبدوا كئيبين واجمين ، وانتهت ليالى الولائم ، وخيم على البيت جو غـريب من الاثم والعقـوبة ، واختفى أصحاب المنفعـة والانتهـازية فخلا المسـكن الا من المنبوذين . وأمسى للنقود قيمة جديدة فلم تعد تنفق الا بحســاب ، وتردد ذكر الغـلاء مصحوبا بلعـن الانفتاح وذم المتاجرين بأرزاق الشعب ! . ولم يخدع عبد الفتـاح بهذا الصوت الوطني الطـارىء وعرف سره . انه يكتسب كل يوم خبرة فى مكتب التحقيقـات أثرت رؤيته وأفعمته بسوء الظـن . لن يخدعه نقـد

المنحرفين اذا حيل بينهم وبين الانحراف · وامتنعت المعونات التى كان يحظى بها من والديه ، وتضاعف قلقه عندما سمع أباه وهو يقول :

ـ لا مفر من بيع بعض التحف لمواجهة الغلاء !

فمضت الدائرة تضيق حول عنقه ويديه وتخلقت فى حياته أزمة جديدة هى الأزمة الجنسية التى لم يشعر بوطأتها من قبل · وقال لوالده :

ـ انى أعجب للذين لم ينحرفوا فى هــذه الظروف الطاحنة ··

فقال أبوه بيقين ساخر :

ـ هم الذين لا حاجة بهم الى الانحراف ··

فوافقه الشاب قائلا :

ـ صدقت ، فلكى يعيش فرد بلا نقود كافية يجب أن يكون صاحب معجزة ··

فقال ابراهيم الدارجى ساخرا :

ـ وقد انتهى عصر المعجزات :

فتنهد الشاب قائلا :

ـ الهجرة الى الخارج هى الأمل الأخير ··

فقال الرجل بلا حماس :

ـ انتظر واصبر ولا تيأس !

ولكن الى متى ؟ · وان وسعه أن يصبر مع التفاهة

فكيف يروض وحش الجنس ؟ · حقا كانت أم حبيبته الغادرة بعيدة النظر ، ولو أن الفتاة انتظـرته لخيب أملها وفضـح نفسه · وسأل زميله عد اللطيف محمود :

ـ ألم تفكر فى الزواج ؟

فأجاب ساخرا :

ـ أفكر فيه عدد شعر رأسى ··

ـ هل استعددت له ؟

فأجاب بعظمة :

ـ سأكون مستعدا عام ٢٠٠٠ !

فابتسم فسأله عبد اللطيف :

ـ وأنت ؟

فأجاب باقتضاب :

ـ حالى حالك !

فقال ضاحكا :

ـ احلم بأن امرأة غنية وقعت فى هواك ··

ولكـن الأحلام أرهقتـه حتى الملل · وانه على أتم الاستعداد للتخلى عن طموحه كله على شرط أن يتزوج وينجب قانعـا كل القناعة بتفاهتـه · وقال لنفسـه « رضينا بالحد الأدنى ولكنه لا يرضى بنـا » · وهبط عليه الهـام غريب فى تافرنا وهو يحتسى النبيذ · أن يعلن حربا على الدولة ! · أن يكتب منشورات سرية ، دينية تارة ومادية تارة أخرى ، ويرسلها الى شـتى

الجهـات ذات الخطـورة فينشر بذلك القلق والرعب ويستمتع بالنصر والعبث . ما عليه الا أن ينقل الآلة الكاتبة الخاصة بوالدته الى حجرته بحجة أنه سيكتب عليها المتأخر من أعماله الحكومية . استجاب للالهام وعزم على تنفيـذه ، وبذلك ينقـذ نفسـه من عـذاب الانتظـار والملل والتفـاهة ! . وراح ينفذ مشروعه بحمـاس وسرور وشـيطنة . ويودع المنشـورات فى مظاريف ويرسلها لشخصيات رسمية وغير رسمية . ورغم أنه استلهم مضامينها من منشورات اطلع عليها خلال التحقيقـات الا أنه زاد نقـدها حدة وتهديداتها عنفا . ولم يركز على صندوق بريد أكثر مما يجب فنوع الشوارع والأحياء ، وانهمك فى العمل بقوة كأنما هو هدف حياته . وانتظر أن يتلقى أصداء عمله الخفى طـويلا حتى أوشـك أن ييأس . واذا بعبـد اللطيف محمود يهمس فى أذنه ذات صباح :

ـ يتحدثون عن نشاط دب فى القوى الهدامة !

فخفق قلب عبد الفتاح واندفع متسائلا :

ـ المنشورات ؟!

وأدرك للتو تسرعه ففزع ، وسأله الآخر :

ـ متى عرفت ؟

فأنقذ نفسه قائلا :

ـ فى المقهى يتحدثون !

ووصى نفسه بالحرص والحذر . فقال عبداللطيف :
ـ أجهزة الأمن فى غاية من النشاط ..
فتراوح بين السرور والخوف وتساءل :
ـ كيف ؟
ـ المراقبة والتفتيش !
غض بصره اخفاء لانفعالاته . لم يكن هذا مقصده . تصور ما يتعرض له الأبرياء بسبب عبثه فغاص قلبه فى صدره . وأمضى اليوم قلقا منزعجا كئيبا . لم يجلس الى الآلة الكاتبة مرة أخرى . وتساءل هل يجيئون بهم ليسجل أقوالهم ؟ . وفى اليوم التالى دس اليه زميله عبد اللطيف ورقة قائلا :
ـ اليك منشورا !
تلقى المنشور بقلب خافق ، ولكن قلبه توقف عن الخفقان عندما تبين له أنه منشور آخر حقيقى لا علاقة له بعبثه ! . الجد والعبث يسيران جنبا الى جنب ، ولكن ذلك لن يبرئه من الذنب فلا شك أن منشوراته تعتبر أيضا مسئولة عما يجرى من تفتيش وتحقيق . ودار رأسه فشعر بأن أصبعا ستشير اليه بالاتهام . وفى صباح اليوم التالى لم يجد عبد اللطيف محمود على مكتبه . وسرعان ما علم بأنه ألقى القبض عليه فيمن ألقى القبض عليهم . قال له رئيس المكتب :
ـ كان منهم ونحن لا ندرى !

أغمض عبد الفتـاح عينيـه مغالبا انفعالاته التى تموج باعصـار همجى ٠ ولم يترك طويلا للتأمل اذ دعى لمكالمة تليفونية لأول مرة مذ التحق بالعمل ٠ وجد أن المتكلم هو والده قال له :

ــ فرجت ، استعد للسـفر ، والتفاصـيل وقت الغداء !

فرجت حقـا ! ٠ الثروة فى الطـريق ولن تستعصى مشكلة عن حل طيب ٠ وقال لنفسه ساخرا انها نهاية سـعيدة جديرة بمنحرف من صـلب منحرفين ! ٠ واستحضر صورة الكون ممثـلة فى السماء والأرض قال :

ــ خبرنى عن الهدف من فضلك واحسانك !

قِسمتي ونصِيبي

(رأيت فيما يرى النائم)

عم محسن خليل العطار أجزل الله له العطـاء فيما يحب ويتمنى عدا الذرية · دهـر طويل مضى دون أن ينجب مع مجاهدة للنفس لترضى بما وهب الله وبمـا منع · كان متوسط القامة ممن يؤمنون بأن الخير فى الوسط · وكان بدينا وعنده أن البـدانة للرجل كما للمرأة زينة وأبهة · وكان يزهو بأنفه الضخم وشدقيه القويين وبالحب المتبادل بينه وبين النـاس · وحباه الحظ بست عنباية ذات الحسن والنضـارة والطيات المتراكمة من اللحم الوردى الناعم ، الى كونها ست بيت ممتازة ، يغنى سطح بيتها المكون من دور واحد بالدجاج والأوز والأرانب ، ويلهج عشـاق مائدتها بطواجنهـا المعمـرة وفطـائرها السابحة فى السـمن البلدى · دنيا مقبلة فى كل شىء ولكنهـا ضنت بنعمة الانجاب فى عناد تطايرت دونه الحيل · نشدت شورى الأحبة ، ولجأت الى أهل الله من العارفين والواصلين ، وطافت بالأضرحة المبـاركة ، حتى الأطبـاء زارتهم ولكنهم أصدروا فتوى غير مبشرة شملت الزوجين معا عم محسـن وست عنبـاية وقالوا ان الأمل البـاقى

أضعف من أن يذكر . ووقفت فى سماء النعيم الصافية غمامة حزن مترعة بالحسرة لا تريد أن تتزحزح . ولما شارف عم محسن الخامسة والأربعين وست عنباية الأربعين تلقيا من الله رحمة . هتفت ست عنباية بعد تدقيق وعناية « يا ألطاف الله ! .. انى حامل وحق سيدى الكردى ! » . كان عم محسن أول من طرب وشكر . وتردد الخبر فى الوايلية على حدود العباسية حيث يوجد بيت الأسرة ومحل العطارة . وانقضت الأشهر التسعة فى انتظار بهيج ، وجاء المخاض يهزج بالأنين السعيد . ولما تلقت الحكيمة الوليد حملقت فيه مذهولة مبهوتة . وراحت تبسمل وتحوقل . وهرعت الى الصالة الشرقية الوثيرة فوقفت أمام عم محسن مضطربة حتى تمتم الرجل خافق القلب :

ـ ربنا يلطف بنا ، ماذا وراءك ؟

همست بعد تردد :

ـ مخلوق عجيب يا عم محسن ..

ـ كيف ؟

ـ أسفله موحد وأعلاه يتفرع الى اثنين !

ـ لا !.

ـ تعال انظر بنفسك .

ـ وكيف حال الست ؟

ـ بخير ولكنها غائبة عما حولها !

وذهب فى أثرها مضطربا خائب الرجاء · وحملق فى المخلوق العجيب · رأى أسفله موحدا ذا رجلين وبطن واحد ، ثم يتفرع بعد ذلك الى اثنين لكل منهما صدره وعنقه ورأسه ووجهه · وكانا يصرخان معا وكأن كل منهما يحتج على وضعه أو يطالب باستقلاله الكامل وحريته الشرعية · هيمن على الرجل شعور بالارتباك والحيرة والخجل وحدس المتاعب تتجمع فوقه كالسحب المليئة بالغبار · وترددت فى داخله العبارة التجارية التقليدية التى يحسم بها الموقف عند فشل صفقة من صفقات العطارة وهى « يفتح الله » · أجل ود لو فى الامكان التخلص من هذه العاهة التى لن يذوق معها راحة البال · وقالت الحكيمة وهى مستغرقة فى عملها الروتينى :

ـ صحة جيدة ، كأن كل شىء طبيعى تماما ··

فتساءل عم محسن خليل :

ـ الاثنان ؟

فقالت الحكيمة بحيرة :

ـ ليسا توأمين ·· هذا وليد واحد !

فجفف الرجل عرق وجهه وجبينه المتصبب من داخله ومن جو الصيف وتساءل :

ـ ولم لا نعتبرهما اثنين ؟

ـ كيف يكونان اثنين على حين أن انفصال جزء عن الجزء الآخر مستحيل !

ـ انها مشكلة ، ليتها لم تكن أصلا !

فقالت الحكيمة بلهجة وعظية :

ـ انه منحة من الله على أى حال ولا يجوز الاعتراض على حكمته ..

فاستغفر الرجل ربه فواصلت الحكيمة :

ـ سأسجله باعتباره واحدا .

فتنهد عم محسن قائلا :

ـ سنصبح أحدوثة ونادرة !

ـ الصبر جميل !

ـ ولكن ألا يستحسن اعتبـاره اثنين ذوى بطـن واحد ؟

ـ لا يمكن أن يتعامل مع الحياة الا كشخص واحد .

وتبادلا النظر صامتين حتى سألته :

ـ ماذا تسميه ؟

ولما لازم الصمت تساءلت :

ـ محمدين ! .. ما رأيك فى هذا الاسم المناسب ؟

فهز رأسه مستسلما دون أن ينبس . ولمـا انتبهت ست عنباية لما حولهـا صعقت . وبكت طـويلا حتى احمـرت عينـاها الجميلتان . وشـاركت زوجهـا عواطفـه . غير أن ذلك لم يسـتمر طويلا فاستجابت

ست عنباية فى النهاية الى عاطفة الأمومة وعم محسن للأبوة · وراحت ترضع الأيمن فما سكت البكاء حتى أرضعت الأيسر · وبعفوية جعلت تنادى الأيمن بقسمتى والأيسر بنصيبى فمنذ الأسبوع الأول عرف الوليد باسمين · وتميز كل بفردية فربما نام قسمتى وظل نصيبى صاحيا يتناغى أو يبكى أو يرضع · ومع الزمن خفت الدهشة وان لم تخف أصداؤها فى الخارج، وألفت الغرابة ، وزالت الوحشة · ونال قسمتى ونصيبى حظهما الكامل من الرعاية والحب والحنان·
ومضت الأم تقول للزائرات من أهلها :

ـ ليكن من أمره ما يكون فهو ابنى ، أو هما ابناى·

واعتاد الحاج محسن ـ فقد أدى الفريضة بعد التجربة ـ أن يقول :

ـ لله حكمته !

وعلم بفطرته أن الطفولة ستمر كدعابة ولكنه فكر فى المستقبل بقلق واختناق · أما ست عنباية فاستغرقتها متاعبها المضاعفة · كان عليها أن ترضع اثنين ، وأن تنظف اثنين · وأن تربى اثنين · وأن تملك أعصابها اذا نام أحدهما واحتاج للهدوء وصحا الآخر ورغب فى الملاعبة · واختلفت بقدرة قادر صورتاهما ، فبدا قسمتى عميق السمرة رقيق الملامح عسلى العينين ، أما نصيبى فكان ذا بشرة قمحية وعينين

سوداوين وأنف ينذر بالضخامة . وأخذ الوليد يحبو على قدمين وأربع أيدى ، وينطق كلمة بعد أخرى ، ويحاول المشى . ولوحظ أن قسمتى كان أسرع فى تعلم النطق ولكنه كان يذعن لمشيئة نصيبى فى الحبو والمشى، وفى العبث بالأشياء وتحطيمها .. لبثت القيادة طيلة تلك الفترة المبكرة بيدى نصيبى واتسمت بالعفرته والتدمير ومطاردة الدجاج وايذاء القطط ، غير أن خضوع قسمتى لنصيبى أعفاهما من الشجار عدا الأويقات النادرة التى كان يميل فيها قسمتى للراحة فلا يتورع نصيبى عن لكزه بكوعه حتى يسترسل فى البكاء . ولما بلغا الرابعة من العمر وجاوزاها ، أخذا ينظران الى الطريق من النافذة ويشاهدان الأطفال ، ويرفعان أعينهما نحو السماء من فوق السطح فانهمرت الأسئلة مع اللعاب :

ـ كل ولد ذو رأس واحد ، لماذا ؟

فتجيب ست عنباية مرتبكة :

ـ ربنا يخلق الناس كما يشاء ..

ـ دائما ربنا .. ربنا .. أين هو ؟

فيجيب عم محسن :

ـ هو يرانا ونحن لا نراه وهو قادر على كل شىء ، والويل لمن يعصاه !

ويحدثهما الرجل عما يجب ليحوزا رضاه فيخاف قسمتى ويقول نصيبى لقسمتى :

ـ اسمع كلامى أنا والا ضربتك ··

ويريان القمر فى ليالى الصيف فيمدان نحوه أيديهما · يتنهد قسمتى مغلوبا على أمره ويثور نصيبى غاضبا · ويتساءل الحاج :

ـ هل نحبسهما فى البيت الى ما شاء الله ؟

فتقول ست عنباية :

ـ أخاف عليهما عبث الأطفال ··

وقرر الحاج أن يقوم بتجربة فجلس أمام البيت على كرسى خيزران وأجلسهما الى جانبه على كرسى آخر · سرعان ما تجمع الصغار من مختلف الأعمار ليتفرجوا على المخلوق العجيب ولم ينفع معهم زجر أو نهر حتى اضطر الرجل أن ينسحب من مجلسه وهو يحملهما على ذراعه ، وتمتم فى أسى :

ـ بدأت المتاعب ·

ولكن الله فتح على ست عنباية بفكرة فاقترحت أن تقنع جارتها بارسال ابنها طارق وبنتها سميحة للعب مع محمدين · ووافقت الجارة مشكورة فجاء طارق وسميحة ، وكان طارق أكبر من محمدين بعام أما سميحة فكانت تماثله فى عمره · وقد فزعا أول الأمر ونفرا من الصحبة غير أن ست عنباية استرضتهما

بالهدايا حتى زايلتهما الوحشة وجرفهما حب الاستطلاع والمغامرة · وسعد قسمتي ونصيبي بالرفيقين الجديدين ، وأحبا حضورهما حبا فاق كل تقدير ، رغم أنه لم يفز بحب فى مثل قوته · وتنوع الحديث واللعب وابتكرت الحكايات · وجدت الكرة الصغيرة من يتبادل رميها ، ووجد الحبل من يتصارع على شده ، وباتت سميحة هدفا ورديا كل يرغب فى الاستحواذ عليه ، وكل يدعوها الى الجلوس الى جانبه اذا جمعهم التلفزيون · وبسبب سميحة نشبت بينهما أول معركة حقيقية على ملأ من الأسرة ، فدميت شفة نصيبي وورمت عين قسمتي · وبها تحرر قسمتي من الذوبان فى نصيبي وأخذ يشعر بأنه فرد بازاء آخر فتبادلا من الآن فصاعدا التوافق كما تبادلا التنافر · وقال الحاج ذات يوم :

ـ جاءت السن المناسبة للمدرسة ··

فتجهم وجه عنباية وارتسم فى أساريره الشعور بالذنب فقال الحاج :

ـ انه باب مغلق !

وتفكر مليا ثم قال :

ـ سأجىء لهما بالمعلمين ، يجب أن يعدا على الأقل ليحلا محلى فى الدكان ··

وجاء المعلمون ، ولقنوهما مبادىء الدين واللغة

والحساب • واستجاب قسمتى للتعلم بدرجة مشجعة أما نصيبى فبدا راغبا عن العلم متعثرا فى الفهم والاستيعاب ، ومن أجل ذلك حنق على الآخر ، وكدر ساعات مذاكرته بالعبث والغناء والمعاكسات الصبيانية • وبدا الخلاف مزعجا فى تقبل التربية الدينية التى أقبل عليها قسمتى بقلب مفتوح على حين وقف فيها نصيبى موقف اللامبالاة • وضاعف زجر المدرس من عناده ، ونهره أبوه كثيرا ولكنه أشفق من ضربه • وعند بلوغ الثامنة أراد قسمتى أن يصلى ويصوم • ومع أن نصيبى لم يمل الى ذلك الا أنه وجد نفسه يشارك بقدر لا يستهان به فى الوضوء ، وأنه يرغم تقريبا على الركوع والسجود • ولشعوره بضعف مركزه أذعن للواقع وهو يمتلىء حنقا وغيظا • وأمره أبوه بالصيام ، وحاول أن يشبع جوعه فى الخفاء ولكن قسمتى احتج قائلا :

ـ لا تنس أن بطننا واحد ، واذا تناولت لقمة واحدة أخبرت أبى ••

وصبر يومه حتى نفد صبره فبكى فرقت له أمه وقالت للحاج :

ـ الله لا يكلف نفسا الا وسعها ، دعه حتى يكبر عاما أو عامين ••

فقال الأب فى حيرة :

ـ ولكنه اذا أفطر أفطر الآخر !

وهى مشكلة لم يحلها الا امام سيدى الكردى فقال ان العبرة بالنية وأن صيام قسمتى صحيح حتى لو أفطر نصيبى · وصام قسمتى رغم افطار نصيبى مستندا الى نيته أولا وأخيرا · وتوكد لكل شخصيته ، وحال بينهما نفور دائم آخذ فى الاستفحال ، وندرت بينهما أوقات الصفاء · وقالت الأم بعين دامعة :

ـ يا ويلى ، لا يطيق أحدهما الآخر ، ولا غنى لأحدهما عن الآخر ، فكيف تمضى بهما الحياة ؟!

مضت على الشوك ، وشمل الخلاف أشياء وأشياء · قسمتى يحب النظافة ونصيبى يكره فكرة الاستحمام الا أن يضطر اليه اضطرارا ، وتوسط الوالدان على أن ينزل قسمتى عن شىء من النظافة نظير أن ينزل نصيبى عن كثير من القذارة · ونصيبى نهم لا يشبع فكثيرا ما كان يصاب قسمتى بالتخمة · ولقسمتى ولع بالأغانى العاطفية على حين يعشق نصيبى الأناشيد الصاخبة · أما ذروة الخصام فقد احتدمت لحب قسمتى النامى للقراءة والاطلاع، يحب أن يقرأ كثيرا والآخر يفضل اللعب فوق السطح ومعاكسة السابلة والجيران · ونصيبى يمكن أن يصبر ساعة على انهماك الآخر فى القراءة ولكنه عند الضرورة يعرف كيف يفسد عليه تركيزه واستغراقه

حتى يشتبكا فى معركة تسفر عادة عن انتصار نصيبى .
وقال له قسمتى مجربا المناقشة بدلا من العنف غير المجدى :
ـ لى هواياتى ولك هــواياتك ولكن هواياتى أنسب لظروفنا غير الطبيعية ..
فقال نصيبى بحدة :
ـ معنى ذلك أن تتحول الحياة الى سجن دائم .
ـ لكن لا نصيب لنا فى الدنيا الخارجية .
ـ السعادة فى الدنيا والكآبة فى الحجرة .
فقال قسمتى :
ـ انك تعاكس الناس فينهالون علينا بالسخرية .
ـ أموت لو فعــلت غــير ذلك .. بل انى أفكر فى اقتحام الطريق ..
ـ ستجعل منا أضحوكة وفرجة ..
فصاح نصيبى :
ـ انى أكره السجن وأحسد النجوم ..
فقال قسمتى برجاء :
ـ يلزمك الكثير من العقل ..
فقال نصيبى بازدراء :
ـ لا سبيل الى الاتفاق .
ـ لكننا واحد كما ترى رغم أننا اثنان !
ـ هذه هى المصيبة ولكن عليــك أن تذعن لى دون مقاومة ..

ـ انك عنيد وتحب الخصام ..

ودعاهما الوالدان الى الاجتماع فى حجرة المعيشة. حقا انهما فقدا الشعور براحة البال وتنغص عليهما صفوهما . وآمنا بأن كارثة ستحل بالبيت ان لم يسارعا الى حسم الداء . قبلتهما عنباية وقالت :

ـ فليحب أحدكما الآخر ، ان وجد الحب تلاشت المشاكل !

فقال نصيبى :

ـ هو الذى يكرهنى !

ولكن قسمتى بادره قائلا :

ـ بل أنت الذى تكرهنى !

فقالت ست عنباية متأوهة :

ـ انكما اثنان فى واحد لا يتجزأ ولا بد من الحب ..

وقال الحاج محسن خليل :

ـ الحكمة تطالبكما بالوفاق والا انقلبت الحياة جحيما لا يطاق ، ذوبان أحدكما فى الآخر مرفوض ، والوفاق ممكن ، فليصبر نصيبى عندما يرغب قسمتى فى القراءة ، وفى مقابل ذلك على قسمتى أن يرحب بالحركة واللعب مع نصيبى ، وليكن كل غناء مقبولا ليستمتع كل بأغانيه المفضلة ، أما الدين فلا مناقشة فيه ..

فقال قسمتى :

ـ انى على اســتعداد طيب للوفاق رغم ما يكلفنى من ضيق ..

ولاذ نصيبى بالصمت فرجع قسمتى يقول :

ـ انه لا يحب الوفاق ، ولا يعد نفسه ليوم تدعونا فيه الى العمل فى الدكان !

فقال الأب بحزم :

ـلا بد مما ليس منه بد !

وعادت ست عنباية تقول بحرارة وضراعة :

ـ عليكما بالحب ففى رحمته النجاة ..

ولكن الوالدين لم يصف لهما بال. وتابعا ما يحدث بقـلق وأسى . وبذل نصيبى فى سـبيل الوفاق جهـدا مترددا لغلبة الأهواء الجامحة عليـه على حين مضى قسمتى فى الطريق الجديد بارادة أقوى ورغبـة أنقى مستأنسا بعواطفه الصادقة وميله المخلص لوضع حد لعـذاباته ، ومستعينا عنـد الضرورة بوالديه . ولما ناهزا الحلم وشارفا المراهقة تصـاعدت أزمتهما الى الذروة . احتدمت الأحلام المكبوتة منذرة بالانفجار . وتبلورت لكل منهما ذاتية مستقلة فبدا الآخر غريبـا مهددا للأمن ، وعدوا يجب أن يقهر . ضاق كل منهما بالرابطة القدرية التى فرضت عليهما وحدة كريهـة لا فكاك منها . وتلاطما فى دوامة من الانفعالات المحرقة الجنونية . وفارت من الأعماق موجة عميـاء جرفت

ستر الحياء ، فارتطم الاندفاع بالندم ، واشتعل الغضب فانخرط الاثنان فى معركة وتبادلا الضربات القاسية . وهمدت الحركة غائصة فى الصمت والشجن . استمرت فترة غير قصيرة الى أن قال قسمتى :

ـ انها لعنة لا يمكن أن تمضى معها الحياة فى سلام ..

فقال نصيبى بهدوء عنيد :

ـ لكنها ستمضى فى طريقها على أى حال !

فأظلمت عينا قسمتى العسليتان وقال :

ـ قضى علينا بالحرمان من الانسجام الذى تحظى به جميع المخلوقات ..

ـ انك مريض ذو أفكار مريضة ..

فقال قسمتى بسخرية :

ـ أحدنا مريض ولا شك !

فقال نصيبى بتحد :

ـ لن أنزل عن حق من حقوقى .. فلا مهادنة بعد الآن ..

ـ لى أيضا حقوقى ..

وتبادلا نظرة متحدية وبائسة ، فانقطعا عن الحوار على أسوأ حال . وفى ذلك الوقت رأيا سميحة ـ زميلة الطفولة ـ بعين جديدة . كانا يريانها من النافذة وهى

تذهب وتجىء منفردة أو بصحبة أمهـا فتوقظ ذكرى عابرة ثم تختفى · أما ذلك اليـوم فرأياها بعـين جديدة · رأياها وقد أنضجتها شعلة الصبا فأضفت عليها بهاء وأثرتها بشهد الرغبة · أترع قلب قسمتى برحيق الفتنة فثمـل على حين جن نصـيبى بالأخيـلة الجامحة · تلقى قلب قسـمتى شـعاع الحسـن كما يتلقى البرعم شعاع الشـمس فيتفتح · تمنى لو تحل محل نصيبى من وجوده التعيس ، ولأول مرة يشـعر بأن نصيبى ليس قيدا فحسب ولكنه سد منيع فى طريق السعادة الحقيقية · أما نصيبى فظل رأسه يتحرك فى اضطراب ، ولمـا وجد الفتاة واقفة قريبـة من مدخل بيتهما تنتظر اندفع فجأة الى الطريق جارا معه قسمتى · مرق من الباب الى الطـريق فرأته سـميحة فتراجعت مبتعدة باسمة · ولكنه اندفع نحوها مسددا يديه الى صدرها ففزعت ووثبت داخلة فى بيتها · ولفتت الهجمة الحيوانية أنظار بعض المارة فى شارع الوايلية ولكن قسـمتى رجع الى بيتـهم بسرعة وهو يسـب ويلعـن والآخر مستسلم له بعـد افاقة مبـاغتة · وغضـب قسمتى وصاح به :

ــ انها فضيحة وما أنت الا مجنون ··

فلم يجبـه نصيبى مغلوبا على أمره · وعلمت الأم بما حدث فجزعت ، ولما عرفت الحقيقـة من قسـمتى قالت للآخر :

ـ ستهلك نفسك ذات يوم ··

فهتف قسمتى :

ـ وسوف يهلكنى معه دون ذنب ··

فقال نصيبى بجرأة :

ـ نحن فى حاجة الى زوجة !

فبهتت الأم ولم تدر ماذا تقول فواصل نصيبى :

ـ كما ولدتنـا فانك مسئولة عن تزويجنا من بنت الحلال ··

فقال قسمتى :

ـ لن توافق بنت على الزواج من اثنين !

فقال نصيبى بتحد :

ـ ابحثى لنا عن زوجتين ··

فقال قسمتى بحزن :

ـ قضى علينا أن نعيش وحيدين !

فقال نصيبى :

ـ فلنعتبر شخصـا واحدا كما نحن مسـجلون فى دفتر المواليد ·

فقال قسمتى بأسى :

ـ شخص للفرجة لا للزواج ··

واضطرت الأم أن تغادر الحجرة وهى تقول :

ـ قد يكون عند الحاج حل !

وثار غضب نصيبى ، وقال للآخر :

ـ لا حل اذا لم نعثر عليه بأنفسـنا ، فلننتظر حتى ينتصف الليل ويندر المارة ثم ننطلق فى الظلام وراء أى صيد يقع ٠

فهتف نصيبى :

ـ خيال جنونى ٠٠

ـ لا تكن جبانا ٠

ـ لا تكن مجنونا ٠

وقال الحاج محسن لزوجته :

ـ لم يغب عنى هذا الموضوع ، ولكن لا توجد أسرة ترضى بمصاهرتنا ٠٠

ـ والحل ؟

فقال الرجل وصوته يخفض :

ـ ستجىء امرأة مسكينة فى الحلقة الخامسة لتقوم على خدمتهما !

وجاءت امرأة تعيسة الحال والمنظر ، نشطوا الى تغذيتها وتنظيفها لترضى بما يراد لها ٠ وأعقب ذلك سكون ظاهرى على الاقل ، أما فى الواقع فان نصيبى كان يسىء معاملة المرأة نهـارا كتعويض عن اندفاعه الليلى ، وأما قسـمتى فبـدا كئيبا مشمئزا ، وسـأل الآخر :

ـ ما ذنبى أنا ؟

فنهره نصيبى متسائلا :

ـ وهل الذنب ذنبى ؟!

لم يحر جوابا لكنه تذكر سميحة بقلبه المسلوب ، وعواطفه المتأججة المحرومة فتضاعف أساه · والحق أن كليهما شعر بالضياع والهوان ، ولكن لم يشعر أحدهما بتعاسة الآخر ، وعلى العكس اتهمه بأنه المسئول عن مأساته ، وود لو يتخلص منه بأى ثمن · ودعاهما الأب للعمل فى الدكان ولو كتجربة لا مفر من ممارستها · كان يوم حضورهما فى الدكان يوما معتدل المناخ من أيام الربيع · تجليا للأعين فى بنطلون رمادى ، وقميصين أبيضين نصف كم أما شعر رأسيهما فاستوى مشذبا متوسط الطول · وقفا وراء الطاولة مرتبكين · وسرعان ما تجمع كثيرون ما بين زبون ومتفرج حتى ازدحم الطريق الى نصفه · وقال الحاج موجها خطابه لابنيه :

ـ استغرقا فى العمل ولا تباليا بالناس ··

ولكن الغضب تملك نضيبى على حين دمعت عينا قسمتى · واذا بمصور صحفى يشق طريقه بين الجموع ويلتقط العديد من الصور لمحمدين أو قسمتى ونصيبى · وفى النصف الثانى من النهار جاء مندوب من التلفزيون يستأذن فى اجراء حوار مع الشابين ، ولكن الحاج رفض بحزم وبنبرة شديدة الغضب · وبنشر الصور فى الصحيفة الصباحية اشتد اقبال الناس وهبط البيع للدرجة الدنيا ، فاضطر الحاج

محسن خليل لمنعهمـا من الذهاب الى الدكان ، وقال لامرأته بقلب محزون :

ـ سوف تصفى التجارة عقب انتهاء الأجل ··

وعند ذاك تساءل نصيبى غاضبا :

ـ لم لم تتخلص منا عقب ولادتنا ؟ · لم لم ترحمنا وترحم نفسك ؟ ·

فقال الحاج فى تأثر شديد :

ـ لن تعرفا الضيم أبدا ، وسترثان ما يحقق لكما الستر والكرامة ·

فهتف نصيبى :

ـ لا قيمة للمال وحده ، الواقع أننـا ميتـان ، كم تمنيت أن أمارس التجارة وأبتاع سيارة وأتزوج من أربع !

وقال قسمتى فى حسرة :

ـ وعندى الاستعداد لأكون أسـتاذا ·· وأمارس السياسة أيضا ··

ونر نصيبى الى قسمتى وقال بحنق :

ـ انك العقبة التى تسد طريقى ··

فقال قسمتى باصرار :

ـ أنت أنت العقبة ··

فتساءل الحاج :

ـ ألا تسلمان بالواقع وتسعيان الى السعادة معا ؟

فقال قسمتى :
ـ لو خلقنا برأس واحد وأسفلين منفصلين لهان الأمر !
فقال الحاج برجاء :
ـ لن تعز السعادة على من ينشدها بصدق ..
فقال قسمتى بحنق :
ـ هذه السعادة هى سبب تعاستنا !
ثم التفت نحو نصيبى قائلا :
ـ تخل عن عنجهيتك واتبعنى تبلغ أقصى درجات الرفعة والسعادة ، أما لو تبعتك أنا فيكون مصيرنا السجن ..
فقال نصيبى ساخرا :
ـ محاولة خائبة لن تنجح ، نحن مختلفان تماما ، أنا لا أحب المعرفة ، أما السياسة فانك ان اخترت الحكومة اخترت من فورى المعارضة والعكس بالعكس ، لن أتبعك ولن تتبعنى ، ولن تهدأ المعركة ..
فقال الأب بنفاد صبر :
ـ ارجعا الى الوفاق ، لا مفر منه ، انه قدر ، كما أن اتحادكما قدر ..
وعادا كارهين الى المحاولة . تجنبا الخلاف ما استطاعا ، وجارى كل الآخر رغم تقزز قسمتى الخفى وسخرية نصيبى بعيدا عن عينى صاحبه . بدوا

صديقين بلا صداقة ، متحالفين بلا اخلاص ، فعاش كل منهما نصف حياة ، وتعلق بنصف أمل • غير أن آثار العمر طبعت فى وجه نصيبى قبل الأوان ، وتوكد أنه يسرع نحو شيخوخة مبكرة • لعله نتيجة لافراطه فى كل شيء • وراح يشكو من فتور فى الجنس وحساسية من الشراب ، وسوء الهضم • ولم تنفعه العطارة ولا الطب • وفى معاناته أعلن ما يخبىء من حنق على صاحبه فاتهمه قائلا :

ـ حسدتنى عليك اللعنة ••

فتسامح معه قسمتى متمتما :

ـ سامحك الله !

فصاح به :

ـ لن تشمت بى ، اذا مت فستحمل جثتى الى نهاية العمر وتتحول من بشر الى قبر !

واشتد به الضعف حتى ركبه الخوف من الموت • ورق له قسمتى فى تدهوره فشجعه قائلا :

ـ سترجع الى خير مما كنت !

فلم يحفل بقوله ولم يصدقه • وذات صباح صحا مبكرا وهتف :

ـ انى ذاهب الى موطن الحقيقة الباكية !

وهرولت اليه ست عنباية فأدركت أنه يحتضر فأخذته فى حضنها وراحت تتلو الصمدية وانتفض

صدره ، وبكى قسمتى أيضا ولكن سرعان ما غشاه الفزع من الموت المزروع فى جذعه ، وتبادل الوالدان نظرة حائرة · ماذا يفعلان بهذه الجثة التي لا يمكن دفنها ؟ · واستدعى طبيب على عجل فتفحص الحال وقال :

ــ انها مشكلة تتضمن مشكلات ، ولكن لا حل الا تحنيطه اذ لا يمكن فصله · ·

هكذا عاش قسمتى حاملا جثة صاحبه المحنطة · أدرك من اللحظة الأولى أنه سيعيش نصف حى ونصف ميت · وأن الحرية التى حظي بها ، والتى طالما تمناها ، ليست الا وهما ، وأنها نصف موت أو موت كامل · أجل قرر أن يهب نفسه للعمل طيلة الوقت بعد أن زال العائق ولكنه اكتشف أنه شخص جديد آخر · ولد الشخص الجديد فجأة وبلا تدرج · شخص فتر حماسه ، وجفت ينابيعه ، وتلاشت همته ، وخمد ذوقه · شخص جفا الحياة والعبادة والمسرات اليومية البريئة · شخص يعيش تحت سماء ماجت بالغبار فلا زرقة ولا سحب ولا نجوم ولا أفق · وقال بأسى عميق :

ــ الموت فى الكون · ·

ورئى طوال الوقت صامتا واجما شبه نائم فسألته أمه :

ـ ألا تسلى نفسك بفعل شيء ؟
فأجابها :
ـ اني أفعل ما فى وسعى ، انى أنتظر الموت ..
وبدا لعينيــــه أن الظــلام يهــرول نحوه واعــدا بالسلام .

العينُ والسّاعة

حدث ذلك فى آخر ليلة لى فى البيت القديم · أو الليلة التى تم الاتفاق على أنها ستكون الأخيرة · والبيت ذو شخصية منفردة رغم قدمه ، وغربته الواضحة فى محيط العصر · بات وكأنه أثر من الآثار ، وأكد ذلك موقعه المطل على ميدان ولد مع القاهرة فى عام واحد · نشأنا فيه بحكم الميراث ، ثم حال الجفاء بيننا وبينه بحكم تنافر الأجيال ، فتطلعنا الى الأجواء الحديثة الباهرة بعيدا عن الجدران الحجرية المغروسة فى الأزقة الضيقة · كنت جالسا فى الصالة المعصرانية الواسعة على أريكة طاعنة فى السن تقرر الاستغناء عنها تحت منور محكم الاغلاق اتقاء لنزوات الخريف · وكنت أحتسى قدحا من القرفة رانيا الى ابريق نحاسى صغير قائم على خوان بين يدى ، يبرز ما فيه عود بخور جاوى يحترق على مهل نافثا خيطا من الدخان الطيب وهو يتماوج ويتأود تحت ضوء المصباح فى صمت الوداع ، واعترى ارتياحى فتور لغير ما سبب ثم غمرنى شجن خفى · شحنت عزيمتى للمقاومة ولكن الحياة كلها تجمعت أمام عينى فى التماعة خاطفة مثل

كرة من نور منطلقة بسرعة كونية ، سرعان ما انطفأت واهبة ذاتها للمجهول غائصة فى جوفه الأبدى .

قلت لنفسى انى على دراية بهـــذه الألاعيب ، وان الرحيل العارض المقرر غدا يذكرنى بالرحيل الأخير عندما يرفع الحادى عقيرته مرددا النشـيد الأخير . وجعلت أتسلى عن أحزان الوداع بتخيل المقام الجديد فى الشــارع العريض تحت أغصــان البلخ الملتحمـة والحياة الجديدة الواعدة بمسرات أنيقة لا حصر لها ، وما كادت القــرفة تســتقر فى جوفى حتى وثبت وثبـة عملاقة مباغتة انتقلت بهـا من حال الى حال ، فمـن أعماقى تصــاعد نداء يدعو بثقة لا حد لهــا الى فتح الأبواب وكشــف الحجاب وغزو الفضــاء واقتناص الرضى والسماح من جنبات الجو المعبـق بالبخور . انجابت الهموم والأشجان وخواطر الفناء . وانهمرت سيول مترعة بالنشاط والهيام والطــرب . وانتفض القلب فى رقصة رائعة موحية بالايهام والجذل . وشع نور فى الباطن فتجسد فى مثــال . وقدم كأســا طافحة وقال بصــوت عذب « تلق هدية معجزة » توقعت أن سيحدث حدث . وقد حدث . ذابت الصــالة فى العدم وحل محلها فناء واسع يترامى حتى يفصل بينه وبين الميــدان جدار غليظ أبيض ، غطتـــه دوائر وأهـلة معشوشبة ، وتوسطته بئر ، وعلى مبعدة يسيرة منها

نخلة فارعة ، وتحيرت بين احساسين ، احساس يقول لى اننى أرى مشهدا لم تسبق لى رؤيته ، وآخر يقـول لى انه ليس بالغريب وأننى أراه وأتذكره معا ٠ حركت رأسى بعنف لأحضر ان كنت غائبا ، ولكن المشهد ازداد وضوحا وسيطرة وتمثل لى بين البئر والنخلة بشر ! انه شخصى أنا رغم استخفائى فى جبة سوداء وعمامة عالية خضراء ، وهذا وجهى رغم لحيته المسترسلة ٠ حركت رأسى مرة أخرى ولكن المشـهد ازداد وضوحا ويقينا ، حتى لون الوقت الاسـمر أشـار الى المغيب المغترب ، وتمثل أمامى ـ بين البئر والنخلة ـ كهـل يماثلنى فى الزى ، رأيتـه يناولنى صـندوقا صـغيرا ويقول :

ـ انها أيام غير مأمونة ، يجب اخفاءه تحت الأرض حتى تعود اليه فى حينه ٠

فسألته :

ـ ألا يحسن أن أطلع عليه قبل اخفائه ؟

فقال بحزم :

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ قد يحملك ذلك على التسرع فى التنفيذ قبل مضى عام فتهلك !

ـ أعلى أن أنتظر عاما ؟

ـ دون نقصان ، ثم أطع ما يمليه عليك ٠٠

وصمت لحظة ثم واصل محذرا :

ــ انهــــا أيام غير مأمونة ، وقد يتعــرض بيتــك للتفتيش ، فيجب اخفاؤه فى الأعماق ··

وقام الاثنان بالحفر على كثب من النخلة ، ودفنــا الصندوق ، ثم أهالا عليه التراب ، وســويا الســطح بعناية ، ثم قال الكهل :

ــ أتركك للعناية الالهية ·· كن حذرا ، انهــا أيام غير مأمونة ···

وعنــد ذاك تلاشى المشــهد فكأنه لم يكن ، رجعت صالة البيت القــديم وما زال فى عود البخور بقيــة ، ورحت أفيق من نشوتى بسرعة وأرتد الى الواقع بكل كثافته ، وغلبنى الانفعال والتأثر طويلا · ترى أكان وهما ما رأيت ؟ هذا هو التفسير الجاهز ولكن كيف آخذ به وأنسى المشهد المجســد الذى نفث اليقين بكل أبعاده ؟ لقد عشت واقعا ماضيا لا يقل فى صلابته عن الواقع الراهن ، رأيت نفسى أو أحد جدودى وجانبا من عصر انقضى ، لا يجوز أن أشك فى ذلك والا شككت فى عقلى وحواسى ، لا أدرى بطبيعة الحال كيف حدث ذلك ولكنى أدرى أنه حدث · وثمة سؤال غزانى بعنف : لماذا حدث ما حدث ؟ · ولمــاذا حدث فى هــذه الليلة الأخيرة لى فى البيت القديم ؟ · وفى الحال شعرت بأننى مطالب بعمل شىء ما · شىء ما لا مفر منه · وترى هل استخرج « الآخر » الصندوق بعد مضى العام وصنع

ما يشير عليه به ، هل نفد صبره فتسرع فهلك ؟ هل انقلبت عليه خطته بسبب تلك الأيام غير المأمونة ؟! ·
يا لها من رغبة آسرة فى المعرفة لا يمكن مقاومتها ! ·
وخطر لى خاطر غريب وهو أن الماضى لم يتمثل لى الا لأن « الآخر » حيل بينه وبين الصندوق وأنى مدعو لاستخراجه وتنفيذ ما يشير به بعد اهمال طال واستطال أمدا غير معروف · انه يأمرنى بألا أهجر البيت القديم لكى أعمل بكلمة قديمة مجهولة آن لها أن تتحقق · ومع أن الموقف كله تسربل بغشاء منسوج من الأحلام ، متنافر تماما مع العقل ، غير أنه هيمن على بقوة طاغية فامتلأ القلب بأشواق التطلع والانتظار وآلامهما الجامعة بين الترقب والعذوبة · ولم أنم من الليل ساعة واحدة ، وظل خيالى يجوب أرجاء الزمان الشامل للماضى والحاضر والمستقبل معا ثملا بخمر الحرية المطلقة ، أمست فكرة الرحيل فى خبر كان ·
واستحوذت على نية التنقيب فى الماضى المجهول لعلى أعثر على الكلمة التى طال رقادها ، ثم أتأمل ما ينبغى صنعه بعد ذلك ، وبالمقارنة بين المشهد البائد والمشهد الماثل لعينى ، قدرت أن موقع النخلة القديم يقوم فى موضع السلم الصغير الصاعد الى المنظرة · وعليه فالحفر يجب أن يبدأ على مبعدة يسيرة منه فيما يلى شباك المنظرة ، اعترضتنى بعد ذلك مشكلة اخبار

أخى وأختى بعدولى عن الرحيل بعد أن تم الاتفاق بيننا عليه · وكنا لا نزال فى مرحلة التعليم الجامعى فأنا فى السنة النهائية بكلية الحقوق ، وأخى الذى يصغرنى بعام يدرس الهندسة ، وأختى التى تصغرنى بعامين تدرس الطب · احتج كلاهما على عدولى المفاجىء ولم يجدا له تفسيرا مقنعـــا وأصرا فى الوقت نفســـه على الانتقال وحدهما غير يائسين من التحاقى بهما فى وقت قريب · وقبل أن يغادرانى ذكرانى بما اتفقنـــا عليه من عرض البيت للبيع للاستفادة من ارتفـــاع ســـعر الأراضى فلم أعارض بكلمة · هكذا افترقنا لأول مرة فى حياتنا وكنا نؤمن بأنه لن يفرق بيننا الا الزواج أو الموت · ولم يبق الا أن أشرع فى العمل · والحق أنى تهيبته أن يتمخض عن لا شىء ولكنى كنت سدفوعا بقوة لا تقبل التراجع · وعزمت على الحفر بنفسى ليلا فى حذر وكتمان ، استعنت بفأس ومجرفة ومقطف واستغرقنى العمل بهمة لا تعرف الكلل · صـــبغنى التراب وملأ صدرى واستقر فى أنفى رائحة مترعة بالأسى والزمان الأول · وتواصل العمل حتى غصت فى الأعماق مقدار طولى كله ولا معين لى الا شعورى الباطنى بأنى أقترب من الحقيقة · وضربت الفأس مرة فرجع صوتا جديدا واشيا بجسم جديد فخفق فؤادى حتى زلزلت جذوره · رأيت الصندوق على ضوء شمعة يطالعنى بوجه أغبر

لكنه حى · وكأنما يعاتبنى على طول تأخرى ، ويؤنبنى على ضياع العديد من السنين ، ويعلن استياءه على حبسه كلمة من حقهـا أن تعرف ، من ناحيـة أخرى تجسد لى حقيقة صلبة لا يدانيها شك · معجزة مجسدة، صوتا يملأ الأسماع ، وانتصارا محققا على الزمن ، صعدت به الى سطح الأرض ثم هرولت الى الصالة ، حملت بين يدى الدليـل الذى عـبر بى من الحلم الى الحقيقـة هازئا بكافة المسـلمات · نفضت عنـه الغبار ، وفتحته ، فوجدت رسالة مطوية فى لفافة من كتان متهرىء ، بسطتها برفق وأنشأت أقرأ :

ــ يا بنى ليحفظك الله تعالى ··

مضى العام وعرف كل سبيله ·

لا تهجر دارك فهى أجمل دار فى القاهرة فضلا عن أن المؤمنين لا يعرفون دارا سـواها · ومأوى آمنـا غيرها ·

وقد آن الأوان لكي تلقى حامى الحمى مولانا عارف الباقلانى ، فاذهب الى داره ، وهى الثالثـة الى يمين الداخل فى عطفة ارم جوز واذكر له كلمة السر وهى : اذا تغيبت بدا وان بدا غيبنى ·

بذلك تؤدى واجبك وتقبل عليـك الدنيا وتنال ما يحب لك المؤمنون وفوق ما تحب لنفسك ·

قرأت الرســـالة مرات حتى حالت القراءة آليــة لا معنى لها · أما قرينى القديم فلا علم لى بما آل اليه مصـــيره · لكن المؤكد أن الدار لم تعد أجمـــل دار فى القاهرة ولا المأوى الآمن للمؤمنين ، ولم يعد لحامى الحمى عارف الباقلانى وجود ، فعـــلام كانت الرؤيا وعلام كان التعب ؟! · ولكن هل يمكن أن تقع معجزة بهذه القوة لغير ما سبب ؟! · أليس من الجائز أنهـــا تطالبنى بالذهاب الى الدار الثـــالثة بعطفـــة ارم جور لتجود على بما لم يقع لى فى تقـــدير ؟! · وهل أملك أن أصرف نفسى عن الذهـــاب الى هنـــــاك مجذوبا بحب استطلاع نهم ورغبة تأبى أن تؤول معجزتى الفـــريدة الى عبث عقيم ، ذهبت مستظلا بجناح الليل متأخرا عن ميعـــادى عدة مئات من الســـــنين · وجدت الحارة خاشعة تحت ظلمة يلوح فى عمقها بصيص نور يشع من مصـــباح ، ولم أر من البشر الا آحادا عبروا بسرعة نحو الطريق · جاوزت البيت الأول الى الثانى وعند الثالث توقفت عن المشى · وملت نحوه كمن يسير فى حلم حتى تبين لى أنه ذو فناء صغير يقع وراء ســـور قصير وأنه لا يخلو من أشباح البشر ، وقبل أن أتراجع فتح البـــاب وخرج رجلان طويلان فى ملابس عصرية ، حصرانى بينهما فى حركة التفـــاف رشـــيقة ثم جاءنى صوت أحدهما قائلا :

ـ ادخل لمقابلة من جئت لمقابلته ٠٠

فقلت مأخوذا :

ـ ما جئت لمقابلة أحد ولكنى أود أن أعرف اسم من يقيم فى البيت ٠٠

ـ حقا ٠ لماذا ؟

فقلت وأنا أزيح عن صدرى انقباضه :

ـ أود أن أعرف ان كان المقيم هنا من آل الباقلانى ٠

فقال الرجل متهكما :

ـ دعك من الباقلانى وواصل رحلتك الى نهايتها ٠

أفضى الى قلبى بأنهما من رجال الأمن فخامرنى قلق وحيرة وقلت :

ـ لا توجد رحلة ولا مقابلة ٠٠

ـ سوف تغير رأيك ٠٠

وقبض كل منهما على ذراع ، وساقانى رغم مقاومتى الى الداخل ٠ انتزعت من الحلم ودفعت الى كابوس ، وأدخلت الى حجرة استقبال مضاءة يقف فى وسطها شخص فى جلباب أبيض والقيد الحديدى فى يديه ، ورأيت فى أنحاء الحجرة رجالا من نوع الرجلين اللذين ساقانى على رغمى ، وقال أحد الرجلين :

ـ كان قادما للاجتماع بصاحبه ٠

التفت رجل ـ حدست أنه رئيس القوة ـ الى المقبوض عليه وسأله :

ـ أحد زملائك ؟

فأجاب الشاب بوجه متجهم :

ـ لم أره من قبل ٠

فنظر الرجل نحوى وسألنى :

ـ هل تردد الكلام نفسه أو توفر على نفسك وعلينا العناء ، وتعترف ؟

فهتفت بحرارة :

ـ أحلف بالله العظيم على أنه لا علاقة لى بشىء مما تظنون ٠

فمد يده نحوى قائلا :

ـ بطاقتك ٠

أعطيته البطاقة فقرأها ثم سألنى :

ـ ما الذى جاء بك الى هنا ؟

فأومأت الى الرجلين وقلت متشكيا :

ـ جاءا بى قسرا ٠

ـ اقتنصاك من عرض الطريق ؟

ـ جئت الحارة للسؤال عن الباقلانى ٠

ـ ماذا يدفعك للسؤال عنهم ؟

فارتبكت وتحيرت وشعرت بالحذر الواجب أن يشعر به من يجرى تحقيق معه ، قلت :

ـ قرأت عنهم فى التاريخ وأنهم كانوا يقيمون فى ثالث بيت الى يمين الداخل الى هذه الحارة ٠

ـ دلنى على المرجع الذى قرأت فيه ذلك ٠
فغصت فى الحيرة أكثر ولم أحر جوابا ، فقال :
ـ الكذب لا يفيد ، بل انه يضر !
فتساءلت فى شبه يأس :
ـ ماذا تريدون منى ؟
فقال بهدوء :
ـ إنك ملقى القبض عليك للتحقيق ٠
فصحت :
ـ لن تصدقونى اذا صارحتكم بالحقيقة ٠
ـ ترى ما هى هذه الحقيقة ؟
تنهدت وفى ريقى تراب ، ثم أنشأت أقول :
ـ كنت جالسا وحدى فى صالة بيتى ٠٠
وأفشيت سرى تحت نظراتهم الصارمة الساخرة ، ولما انتهيت قال الرجل ببرود :
ـ ادعاء الجنون لا يفيد أيضا ٠
فهتفت بشماتة وأنا أخرج الرسالة من جيبى :
ـ اليكم الدليل ٠٠
تفحصها مليا وهو يهمس لنفسه :
ـ ورقة غريبة سنجلو سرها بعد قليل ٠٠
وراح يقرأ السطور بعناية وشفته تنفرج عن بسمة هازئة ثم تمتم :

ـ شفرة مكشوفة !

ثم نظر نحو صاحب الدار المقبوض عليه وسأله :

ـ سيادتك عارف الباقلانى ؟ ، أهذا هو اسمك الحركى ؟

فقال الشاب باستهانة :

ـ ليس لى اسم حركى ، وما هذا الغريب الا أحد مرشديكم جئتم به لتلفقوا لى تهمة ولكنى خبير بهذه الألاعيب !

وتساءل أحد المعاونين :

ـ ألا يستحسن أن نبقى لعل آخرين يأتون فيقعون فى الشرك ؟

فقال الرجل :

ـ سننتظر حتى الفجر ٠

وأشار الى الرجلين الممسكين بى اشارة خاصة فشرعا يضعان القيد الحديدى فى يدى غير مبالين باحتجاجى ، ولم أصدق المصير الذى انزلقت اليه ٠ كيف يبدأ بمعجزة باهرة وينتهى بمثل هذه الوكسة ؟! ٠ لم أصدق ولم أستسلم لليأس ٠ أجل انى أنغمس فى محنة حتى قمة رأسى ولكن الرؤيا لم تتجل لمحض العبث ٠ على أن أعترف بخطئى الصبياني وعلى أن أعيد النظر ، وعلى أن أناجى الوقت ٠٠

وشملنا صمت ثقيل · تذكرت أخى وأختى فى الدار الجديدة ، والحفرة الفاغرة فى الدار القديمة ، وتراءى لى الموقف من خارجه ففرت منى ضحكة ، ولكن لم يلتفت لى أحد ، ولا خرج من الصمت ·

الليلة المباركة

ما هى الا حجرة وحيـدة يتوسطها البـار والرف المزين بالقوارير فى عطفة نورى المتواضعة والمتفرعة عن كلوت بك ، اسمهـا الزهرة ، ولكن يعشـقها لحد الوله الشيوخ المدمنون ، وخمارها طاعن فى السـن ، متماد فى الهدوء ، مؤثر للصمت ، غير أنه يشع مودة وأنسا ، وبخلاف الحانات تهيم فى سكينة رائعة ، وكان روادها يتناجون فى الباطن ويتحاورون بالنظـرات ، وفى الليـلة المباركة خرج الخمار عن صمته التقليدى وقال :

ـ حلمت أمس بأن هدية ستسدى الى صاحب الحظ السعيد ··

فشدا قلب « صفوان » بنغمة حجاز مصحوبة بعزف عود خفى فتدفقت موجات الخمر فى أرجائه كالكهرباء فهنأ نفسه قائلا « مبـاركة الليلة المباركة » · وغادر الخمارة ثملا يترنح ، غائصا فى الليـل الجليـل تحت سـماء خريف لم يخـل من وميض نجوم · مضى نحو شارع النزهة مخترقا الميدان متألقا بنشوة لم يعتورها أدنى خمول · بدا الشارع خاشعا تحت ستار الظلام

· عدا أضواء المصـــابيح الرسمية المتباعدة ، بعــد أن أغلقت الحوانيت أبوابهــا وركنت المســاكن للنوم ·
ووقف أمام بيته ، وهو الرابع الى اليمين ذو الرقم ٤٢ ، من دور واحد يتقدمه فناء قديم لم تبق من حديقته الا نخلة فارعة · وعجب للظــلام الكثيف الذى يحتويه .
وتساءل لم لم تضىء زوجته مصباح الباب الخارجى كالعادة ؟! · وخيل اليه أن شبح البيت يتبدى فى صورة جديدة ، جهمة غليظة موحشة وأن رائحة تفــوح منه كالشيخوخة · ورفع صوته هاتفا :

ــ يا هوه ! · ·

فاستوى أمام عينيه وراء السور شبح رجل يسعل ثم يتساءل :

ــ من أنت ؟ · · وماذا تريد ؟ · ·

فذهل صفوان لوجود الغريب وسأله بحدة :

ــ من أنت ؟ · · وماذا أدخلك بيتى ؟!

فقال الرجل بخشونة وغضب :

ــ بيتك ؟

ــ من أنت ؟

ــ أنا خفير الأوقاف ·

ــ لكن هذا بيتى · ·

فصاح الرجل ساخرا :

ـ هذا بيت مهجور من قديم تجنبه الناس لما يشاع عنه من أنه مسكون بالعفاريت ..

سلم بأنه ضل طريقه ، وهرول نحو الميدان ، وشمله بنظرة شاملة ، ثم رفع رأسه الى لافتة الشارع ، وقرأ بصوت مرتفع « النزهة » ، ودخل هذه المرة وهو يعد البيوت عدا حتى بلغ الرابع . وقف مذهولا يكاد يجن . لم يجد بيته ، ولا البيت المسكون ، ولكنه رأى أرضا فضاء ، خرابة ، مبسوطة بين البيوت ، وتساءل :

ـ أفقدت بيتى أم فقدت عقلى ؟!

ورأى الشرطى قادما وهو يتفقد أقفال الحوانيت فاعترض سبيله وسأله وهو يشير نحو الخرابة :

ـ ماذا ترى هنا ؟

فحدجه الشرطى بنظرة مستريبة وتمتم :

ـ هذه خرابة كما ترى ، وتقام فيها سرادقات الموتى أحيانا ..

فقال صفوان :

ـ كان يجب أن أجد مكانها بيتى ، تركته وفيه زوجتى وهو فى تمام الصحة والعافية عصر اليوم فقط ، فمتى هدم وأزيلت أنقاضه ؟!

فدفن الشرطى ابتسامة طارئة فى عبوسة رسمية وقال له بخشونة :

ـ اسأل السم الزعاف فى بطنك !

فقال صفوان بكبرياء :
ـ انك تخاطب مديرا عاما سابقا !
فقبض الشرطى على ذراعه ومضى به قائلا :
ـ سكر وعربدة فى الطريق العام !
وسار به الى قسم الظاهر على مبعدة يسيرة وأوقفه أمام الضابط فى حال تلبس ، ورثا الضابط لوقاره وسنه ، فقال :
ـ البطاقة ؟
وأخرج له بطاقته وهو يقول :
ـ انى فى تمام وعيى ولكن بيتى لم يعد له أثر ..
فقال الضابط ضاحكا :
ـ سرقة من نوع جديد لا أدرى كيف أصدقها ..
فقال صفوان بقلق :
ـ ولكنى أقول الحقيقة ..
ـ الحقيقة مظلومة ولكنى سأعاملك برفق اكراما لسنك ..
ثم قال للشرطى :
ـ اذهب به الى البيت رقم ٤٢ بشارع النزهة .
وذهب به الشرطى ، وأخيرا وجد نفسه أمام بيته كما يعرفه ، ورغم سكره دهمه الحياء . وفتح الباب الخارجى ، وعبر الفناء ، وفتح الباب الداخلى ، وأضاء مصباح المدخل ، وعند ذاك بهت . وجد نفسه فى مدخل

لم تقع عليه عيناه من قبل · لا صلة ألبتة بينه وبين مدخل بيته الذى عاش فيه حوالى نصف قرن حتى أبلى أثاثه وجدرانه · وقرر التراجع قبل انكشاف أمره فمرق الى الطريق ، وقف يتفحص البيت من الخارج ، انه بيته ، من ناحية الشخصية والمواقع ، وقد فتح أبوابه بمفتاحه فلا منفذ الى الشك فى ذلك ، فماذا غيره من الداخل ؟!· ثمة نجفة صغيرة بهيئة الشمعدان ، والجدران مورقة ، وسجادة جديدة ! من ناحية هو بيته ، ومن ناحية أخرى هو بيت غريب · وماذا عن زوجته صدرية ؟!·

وقال بصوت مسموع :

ـ انى أشرب منذ نصف قرن فماذا حدث فى هذه الليلة المباركة ؟!

وخيل اليه أن بناته السبع المتزوجات ينظرن اليه بأعين دامعة ، ولكنه عزم على أن يحل مشكلته بنفسه دون لجوء الى السلطات والا عرض نفسه لسيف القانون ، واقترب من سور الفناء وراح يصفق بيديه ، وفتح الباب الداخلى عن شخص لم تتضح معالمه وجاءه صوت امرأة متسائلا :

ـ ماذا يوقفك فى الخارج ؟!

خيل اليه أنه صوت غريب ، أو شك فى ذلك ، وتساءل :

ـ بيت من من فضلك ؟!

فهتفت المرأة :

ـ لهذا الحد ؟!٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠

فقال بحذر :

ـ أنا صفوان ٠٠

ـ ادخل والا أيقظت النائمين ٠٠

ـ أأنت صدرية ؟!

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ، يوجد من ينتظرك فى الداخل ٠٠

ـ فى هذه الساعة ؟!

ـ انه ينتظر منذ العاشرة ٠٠

ـ ينتظرنى أنا ؟!

فتأففت بصوت مسموع ٠ فتساءل :

ـ أنت صدرية ؟!

فهتفت بنفاد صبر :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله !

وتقدم ، فى حذر أولا ثم باستهانة ٠ وجد نفسه فى المدخل الجديد ٠ ورأى باب حجرة الاستقبال مفتوحا والأضواء تنير الداخل بقوة أما المرأة فقد اختفت ٠ ودخل حجرة الاستقبال فطالعته بمنظر جديد مثل المدخل ٠ أين ذهبت الحجرة القديمة بأثاثها العتيق ؟! جدران حديثة الطلاء ، ونجفة كبيرة تتدلى منها فوانيس

من طراز أسبانى ، وسجادة زرقاء ، وكنبة وثيرة وفوتيات مريحة ، فهى حجرة فاخرة ، وفى الصدر جلس رجل غريب لم يره من قبل ، نحيل غامق السمرة ذو أنف يذكر بمنقار الببغاء وفى بصره حدة ، ويرتدى بدلة سوداء رغم أن الخريف كان يسحب خطاه الأولى ·

بادره الرجل بضيق :

ـ شد ما تأخرت عن ميعادنا !

فذهل صفوان وغضب فى آن وتساءل :

ـ أى ميعاد ؟ ·· من أنت ؟!

فهتف الرجل :

ـ هذا ما أتوقعه ، النسيان ! ، صادق أو كاذب ، الشكوى نفسها ، تتكرر كل يوم ، لا فائدة ، ولكن هيهات ··

فصاح صفوان بحدة :

ـ ما هذا الهذيان ؟

فقال الرجل وهو يضبط أعصابه :

ـ أعرف أنك صاحب « مزاج » وأنك تفرط أحيانا ·

فقاطعه :

ـ انك تخاطبنى وكأنك ولى أمرى على حين أننى لا أعرفك ويدهشنى أنك تفرض نفسك على بيت فى غياب صاحبه ··

وهو يضحك ضحكة باردة :

ـ صاحبه ؟!

فتساءل فى عنف :

ـ كأنك تشك فى ذلك ·· أرى ضرورة استدعاء الشرطة !

فاندفع الرجل فى غضب :

ـ كى تقبض عليك بتهمة السكر والعربدة والاحتيال !

ـ اخرس انك محتال وقليل الأدب ··

فضرب الرجل كفا بكف وقال :

ـ تتجاهلنى لتهرب من تعهداتك ولكن هيهات ··

ـ أنا لا أعرفك ولا أفهمك ··

ـ حقا ؟! أتدعى النسيان والبراءة ؟ ·· ألم توافق على بيع البيت والزوجة وتحديد هذه الليلة لانهاء الاجراءات النهائية ؟!

فذهل صفوان وصاح :

ـ يا لك من شيطان كذاب ··

فقال بهدوء وهو يرفع منكبيه :

ـ كالعادة كالعادة أف لكم !

ـ أنت مجنون بلا شك ··

ـ لدى الدليل والشهود !

ـ لم أسمع عن انسان فعل ذلك من قبل ··

ـ بل يحدث كل ساعة ولكنك ممثل بارع وسكران ·

فقال صفوان وهو ممزق بين انفعالاته المتضاربة :
ـ أطالبك بالخروج فى الحال ..
فقال بصوت ملىء بالثقة :
ـ بل ننهى الاجراءات الناقصة ..
ونهض نحو الباب المغلق المفضى الى الداخل ونقره ثم رجع الى مجلسه وفى الحال دخل رجل قصير مربع الأنف بارز الجبهة يتأبط دوسيها متخما بالأوراق فانحنى تحية وجلس . ثقبه صفوان بنظرة قاسية وصاح :
ـ متى أصبح بيتى مأوى للأغراب ؟ !
فقال الرجل الأول مقدما الداخل :
ـ الأستاذ المحامى .
فسأله صفوان بشدة :
ـ من أذن لك بالدخول فى بيتى ؟
فقال الأستاذ مبتسما :
ـ أنت مرهق ولكن الله يسامحك ، ماذا يغضبك ؟
ـ يا لك من صفيق !
فقال الأستاذ دون مبالاة بقوله :
ـ الصفقة فى صالحك دون ريب .
فسأله بذهول :
ـ أى صفقة ؟!
ـ أنت تعرف تماما ما أعنيه .. وأود أن أقول لك

ان التفكير الآن فى التراجع غير مجد · القانون معنا والعقل أيضا · دعنى أسألك أترى أن هذا البيت هو بيتك حقا ؟!

لأول مرة يشعر بالحرج ويقول :

ــ نعم ولا ··

ــ أكان على هذه الحال عندما غادرته ؟!

ــ كلا ·

ــ اذن فهو بيت آخر ·

ــ لكنه نفس الموقع والرقم والشارع ·

ــ جميع ذلك أعراض لا تمس الجوهر ، واليك أمرا آخر ··

وقام فنقر الباب ثم رجع الى مجلسه · وسرعان ما دخلت امرأة متوسطة العمر والجمال مهذبة المظهر مع ميل الى الحزن فجلست الى جانب الرجل الأول وعاد المحامى يسأله :

ــ هل ترى فى هذه السيدة زوجتك ؟

خيل اليه أنها تمت بشبه اليها ولكنه لم يملك أن قال :

ــ كلا ·

ــ عظيم لا البيت بيتك ولا السيدة زوجتك فما عليك الا أن توقع على الاتفاق الأخير ثم ترحل ··

ــ أرحل ! ·· الى أين ؟!

ـ يا سيدى لا تكن عنيـدا · الصـفقة فى صالحك تماما وأنت تعلم ذلك ·

ودق جرس التليفون فى هذه السـاعة المتأخرة من الليل وكان المتحدث الخمار ·

وعجب صفوان لأنه كان يتلفن له لأول مرة فى حياته قال له :

ـ صفوان بك ·· وقع دون تأخير ··

ـ لكن هل تعلم ··

ـ وقع ·· انها فرصة لا تعوض فى العمر الا مرة واحدة ··

وأغلق السكة · تذكر صفوان الحوار القصير واذا بأعصابه تهدأ وتستقر وتستسلم من أقصى طرف الى أقصى طرف · فى ثانيـة تغير حاله تمـاما فانبسـطت أسـاريره وزايله التوتر فوقع ، وعنـد ذاك سـلمه المحامى حقيبة صغيرة وثقيلة نوعا ما وهو يقول :

ـ فليبارك الله خطاك ، فى هذه الحقيبة كل ما يلزم الانسان السعيد فى هذه الدنيا ·

وصـفق الرجل الأول فدخل رجل بدين جدا باسم الثغر جذاب الروح فقال المحامى يقدمه الى صفوان :

ـ هذا رجل أمين وخبير فى عمله وسيوصـلك الى مأواك الجديد · حقا انها صفقة رابحة !

ومضي الرجل البـدين الى الخارج فتبعه صـفوان

ساكنا مطمئنا ويده تشد على مقبض الحقيبة · تقدمه الرجل فى الليل فتبعه ، ولما لفحه الهواء ترنح فأدرك أنه لم يفق بعد من سكرة الليلة المباركة · وأوسع الرجل خطاه فطالت المسافة بينهما فأسرع بدوره رغم سكره مسددا بصره نحو شبح الآخر وهو يعجب لجمعه بين الخفة والبدانة وهتف به :

ـ تمهل فى سيرك يا حضرة ·

فكأنه حثه على مزيد من السرعة فتدفق فى خطى متلاحقة ، فاضطر صفوان الى الهرولة خشية أن يفقده فيفقد أمله الأخير ولكنه خاف أن يعجز عن الصمود فهتف به مرة أخرى :

ـ تمهل والا ضللت طريقى

فاذا بالآخر يعدو غير عابىء به ففزع صفوان واندفع يجرى غير مبال بالعواقب وناله من ذلك عناء شديد وغير مجد أيضا لأن الرجل غاص فى الظلام وتوارى عن عينيه · وخاف أن يسبقه الى ميدان الينابيع حيث تتفرق طرق شتى فلا يدرى فى أى طريق ذهب فراح يجرى بأقصى سرعة مصمما على اللحاق به · وأثمر جهاده فلاح له شبحه مرة أخرى عند مفترق الطرق · رآه ينطلق صوب الأمام نحو الحقول متجاهلا الفروع المائلة نحو المدينة شرقيها وغربيها فانطلق وراءه وتواصل العدو بغير انقطاع ودون

أدنى شعور بالعجز من ناحيته وفغمت خياشيمه روائح طيبة مستثيرة ذكريات شتى لم يجد وقتا لتمليها ومعايشتها وعندما انفرد بهما فضاء السماء والأرض أخذ الرجل يهدىء من سرعته على مهل حتى رجع الى الهرولة فالمشى ثم توقف ولحق به وتوقف وهو يلهث • نظر الى الظلمة الشاملة المشعشعة بأضواء النجوم الخافتة ثم تساءل :

ـ أين المأوى الجديد ؟

فلزم الرجل الصمت على حين راح هو يشعر بغزو ثقل جديد ينقض على منكبيه وسائر جسمه ونما الثقل وتصاعد حتى خيل اليه أن قدميه ستغوصان فى الأرض واشتدت وطأته حتى لم تعد تحتمل الصبر وباندفاعة عفوية خلع حذاءه ومضت الوطأة فى صعود فنزع جاكتته وبنطلونه وطرحهما أرضا ولم يحدث ذلك أثرا يذكر فتخلص من ملابسه الداخلية غير مبال برطوبة الخريف غير أن الألم ألهبه فلم يجد بدا من ترك الحقيبة تهوى الى الأرض وهو يتأوه • عند ذاك خيل اليه أنه استعاد توازنه وأنه يستطيع أن يتابع الخطوات المتبقية وانتظر أن يفعل صاحبه شيئا ولكنه غرق فى الصمت وأراد أن يحاوره فامتنع عليه الحوار وتسلل الصمت الشامل من مسامه الى صميم قلبه • وخيل اليه أنه سيسمع بعد قليل الحوار الدائر بين النجوم •

رأيت فيما يرى النائم

الحلم رقم ١

رأيت فيما يرى النائم ..

أننى راقد . أننى نائم أيضا ولكن وعيى يرامق الظلام المحيط. وثمة أنثى أقبلت يند عنها حفيف ثوب . والحجرة ما الحجرة ؟ ، أهى حجرتى الراهنة أم أخرى آوتنى فيما سلف من الزمان ؟ . ويتهادى الوجه الى حسى رغم الظلام . باستدارته الناعمة وسمرته الصافية ورنوته الناعسة . نسق تسريحتها عصرى أما ثوبها فقديم يجر ذيلا مثل سحابة رشيقة . وهمس صوت لم أر قائله :

ــ للزمن نصل حاد وحاشية رقيقة .

وركعت فى استسلام وانهمكت فى عمل . ثبتت عليها عيناى ولكنى لم أنبس بكلمة . وحدسبت وراء انهماكها غاية دانية . وقال الصوت :

ــ الأنفاس العطرة تصدر عن قلب طيب .

وانتظرت حتى جمعت أدواتها ونهضت فى رشاقة . ومضت نحو الخارج . شدتنى بخيوط خفية لا تنقصف فانزلقت من الفراش وتبعتها . وهيمن على شعور

بأننى مدعو لأمر ما ، وأننى لن أحيد عن التطلع الى الأمام · تمضى متأودة كأنها ترقص باعثة وراءها بنسائم من الذكريات · تعرف طريقها فى الليل وأهتدى أنا بشبحها · ومررت بأشياء وأشياء ولكنى أنسيتها فتوارت مثل شرر متطاير · وعند موضع عبق بشذا الحناء فصل بيننا قطار سريع طويل رج الأرض ومن عليها · وبذهاب ضجيجه استوى الليل أمامى وحده فضاعفت من سرعتى · وأطبق الليل وحده واختلجت فيه الوعود المضمخة بشذا الحناء · لم يعد فى وسعى التراجع وليس معى من الحوافز الا الظمأ والشوق ·

الحلم رقم ٢

رأيت فيما يرى النائم ··

حبة رمل ملقاة بين جذور أشجار فى مكان لعله غابة · جذبت انتباهى واستحوذت عليه ببريقها ، وبما أوحته الى من أنها ترانى كما أراها · وقلقت فى موضعها فلم أشك فى أنها مقبلة على مغامرة وأثارت حب استطلاعى الى أقصى حد · ومضت تنتفخ رويدا حتى آلت الى كرة مغطاة بزوائد مثل أوراق الورد ، مرقوم على صفحاتها كلمات لم أتبينها · ووثبت كأنما قذفتها

قوة فى الفضاء مقدار أشبار وتهاوت مرتطمة بالأرض محدثة صوتا قويا استرسل صداه فيما يشبه النغم · وتمادت فى الانتفاخ حتى صارت فى حجم قبة ضخمة ثم انطلق منها عمود عملاق بسرعة مخيفة زلزلت لها الأشجار الفارعة حتى تلاطمت ذراها مع حشائش الأرض ، وانبثقت من العمود فروع لا حصر لها غاصت فى الفضاء ، وانبسطت أوراقها كالزواحف مثقلة بآلاف الكلمات المبهمة · وركبنى الارتياع فعدوت بأقصى ما لدى من سرعة مبتعدا عن مركزها المتفجر · عدوت منها ولكنى عدوت فى مجالها وحضنها وقبضتها ، فلا منفذ للهرب ولا صبر على التوقف أو الاستسلام · والفورة محدودة وسطح الأرض معاند والرياح على غير ما أشتهى واستوى فى شعورى البعد والقرب ازاء تلك الكينونة المتمادية فى التعملق بلا نهاية · ان صوت نموها الهائل يدوى وظلها يغشى الأشياء كالليل · وردة فعلها تعبث بالكائنات وأطراف قبضتها تنحدر فيما وراء الأفق · وتبين لى أننى لست الوحيد فى المأزق ، وأن ملايين يلهثون من العدو ، وأن السحب تركض أيضا والرياح وأضواء النجوم وارتفع صوت قائلا :

ــ رفهوا عن أنفسكم بالغناء ··

فتساءل صوت آخر :

ــ هل يطيب الغناء والمطرب يتخبط فى القبضة ؟

فقال الصوت الأول :
ـ رفهوا عن أنفسكم بالغناء !
وتحركت الحناجر نغني كل على ليلاه · وتضاربت الأصوات فانقلبت عربدة تنضح بالوحشية والجمال ·

الحلم رقم ٣

رأيت فيما يرى النائم ··
أن ثمة عينا ترنو الى ·· عين كبيرة كأنها فسقية ، جميلة الرسم ، عميقة السواد ، ناصعة البياض ، مستوية فى مكان غير معروف ولكن سحائب بيضاء تظللها · وفى نظرتها ما يوحى بأنها ترانى ، وربما تعرفنى ، ولكن يكتنفها حياد يقصينى الى ما وراء الغيب · وقلت لنفسى انها عين امرأة فأين بقيتها ؟ · وقلت أيضا بصوت مسموع :
ـ آفة الحب الحياء !
عند ذاك رأيت حيالى رفيق صباى الراحل فتعانقنا بحرارة ، وفى غمرة الفرحة باللقاء نسيت حزنى الكبير عليه · وسرعان ما اختفى من مجال البصر لتحل محله ساحة المولد النبوى فى أيامها البعيدة الزاهرة · ووجدتنى فى صف طويل أمام شباك التذاكر الخاص

بخيال الظل · ودخلت مسرحه الصغير ولكنى وجدت نفسى فى سرادق امتحـان · واتخذت مجلسى كتلميـذ وشرعت فى الاجابة · ولما لم يبق من الزمن الا دقائق وضح لى أننى أجبت على سؤال غير السؤال المطلوب الاجابة عليه · وضاق صدرى فتساءلت :

ـ سهوة عابرة تضيع حياة ؟!

فسألنى المراقب متهكما :

ـ أنسيت قول المتنبى ؟!

فحرت أى بيت يقصـد وتحاشيت السـؤال · ووجدتنى بعيـدا اتأبط ذراع رفيق صـباى الراحل متطلعين معا الى العين · تبدت العين هذه المرة أوغل فى العمـر وأحوز للحكمـة وأعمـق فى الحياد · قلت لصديقى :

ـ أخشى أن يغلبنى الحزن ·

فأضاء وجهه بضحكة صافية وسألنى هامسا :

ـ من القائل « آه لو تعلمون ما أعلم ·· » ؟

فعصرت ذاكرتى لأتذكر ولكن الديك صـاح مؤذنا بطلوع الفجر ·

الحلم رقم ٤

رأيت فيما يرى النائم ٠٠

أننى فى العوامة كالأيام الماضية ٠ وغنى صوت فى أعماقى « عادت ليالى الهنا » ٠ وشعرت بالدفء وسط الأصدقاء والأحباب ٠ ولما تفرست فى الوجوه انتقلت من حال الى حال ٠ المكان هـو المكان ، والمنظـر هو المنظر ، ولكن أين الوجوه أين ؟! ٠ أمسك الزمن بقلمه ونقش على صفحاتهـا تجاعيده ٠ وبث فى مجاريهـا ذبوله ٠ وامتص بنهمـه النضـــارة والرونق ٠ وفى مواضع المصابيح الكهربائية حلت شموع تحترق فلم يبق من قاماتها الرشيقة الا أنصاف وأرباع ٠ ورقصت ظلال الأشـباح فوق الجدران ، ومن الأفواه المثرمة تساقطت ضحكات فاترة كأنها أنات وتنهـدات ٠ وفى مركز الجلسة بسطت سجادة مربعة صفت عليها جنبا الى جنب جثث محنطة للأعزاء الراحلين ٠ قال صوت :

ــ هكذا كان يفعل قدماء المصريين فى حفلاتهم ٠

فتساءلت :

ــ ولكن أين ذهبت الحضارة ؟

فقال صوت :

ـ المنبع والمصب يقعان خارج أسوار الحضارة ٠
وافتقدت بشدة الحوار والثرثرة فتساءلت :
ـ ماذا أسكتنا ؟ !
فأجاب صديق ضاحكا وعيناه تدمعان :
ـ اللعنة فى التكرار ٠
فتساءلت :
ـ أليس ثمة شكوى جديدة تقتضى ضحكة جديدة ؟
فأجاب مستزيدا من الضحك والدموع :
ـ ثبت أن جميـع الشـكاوى مسـجلة عـلى حجر رشيد ٠٠
واقتحم عم عبده علينا مجلسنا وهو يقول :
ـ آن أوان قراءة الطالع ٠٠
ونظر فى بطون نعالنا مليا ثم قال :
ـ ستسيرون فوق الماء الى جزيرة الذهب ٠٠
وهيمن علينا الحلم والابتسام ٠٠

الحلم رقم ٥

رأيت فيما يرى النائم ٠٠
أننى فى استديو ٠ مضيت كمن يعرف طريقـه الى البلاتوه رقم ١ فى صمت كامل يوحى بأن ثمة تصويرا

للقطة ما . اقترب منى رجل بدين ذو مظهر سـيادى وهمس فى أذنى :

ـ أهلا بك يا أستاذ .

ووجدتنى أعرف أنه المنتج وأننى مندوب فنى لمجلة الفن . وتابعت المشهد الذى تدور الكاميرا لتصويره وسط جمع من الفنـانين والفنيين يتابعونه أيضـا فى صمت تقليدى وباهتمام غزير . وكان المشهد يمثـل صحراء مترامية ليس بها قائم سوى نخلة فارعة رقد تحتها عربى متلفعا بعباءته . ويدخل المشهد رجلان ، عربى وأعجمى ، يقتربان من النائم ، ثم ينحنى العربى فوقه قائلا باجلال :

ـ يا أمير المؤمنين !

يستيقظ النائم ثم يجلس مرسلا بصره نحو القادمين فيقول العربى مشيرا الى الأعجمى :

ـ رسول قادم من بلاد فارس .

ينهض أمير المؤمنين ، يتبادل التحية مع القادم ، ثم يسأله :

ـ ماذا وراءك ؟

القادم يتأمله بدهش ثم يسأله :

ـ أأنت حقا أمير المؤمنين ؟

فيجيب بتواضع :

ـ انى عبد الله وامام المؤمنين من عباده .

فيقول الرجل فى انبهار :

ـ عدلت فأمنت فنمت ..

وعند ذاك ينتهى تصوير اللقطة . ينظر المنتج الى قائلا :

ـ أخيرا سمحت الرقابة بانتاج فيلم عن سيدنا عمر ..

فقلت مهنئا :

ـ خطوة عظيمة ..

فقال الرجل فى مباهاة :

ـ لقد اقتضى السعى أن نطلب وساطة الرئيس الأمريكى ريجان !

وقمت بجولة سريعة فى بعض ملاهى الهرم ثم رجعت الى البلاتوه رقم ١ لمشاهدة تصوير لقطة جديدة . كان المشهد الذى يجرى تصويره هو نفس المشهد السابق، الصحراء المترامية والنخلة الفارعة . غير أنه كان ثمة رجلا عربيا فى عباءة رثة لابسا فى رأسه طرطورا وهو مكب على حفر موضع غير بعيد من النخلة . انه نفس الممثل ونفس المنظر ولكنه لا يمكن أن يكون الفاروق عمر ! . يمر به عربى آخر فى عباءة من الخز ثم يدور بينهما الحوار الآتى:

العربى القادم : مالك يا جحا ؟

جحا : انى قد دفنت فى هذه الصحراء دراهم
ولست أهتدى الى مكانها ·

العربى : كان يجب أن تجعل عليها علامة !

جحا : قد فعلت ·

العربى : ماذا ؟

جحا : سحابة فى السماء كانت تظلها ، ولست
أرى العلامة !

وانتهى تصوير اللقطة فأعقبه همهمة من الاستحسان · وسألت المنتج عن معنى وجود جحا فى فيلم عن عمر وكيف يقوم بالدورين ممثل واحد ، فضحك طويلا وقال :

ــ انى أنتج فلمين فى وقت واحد ، أحدهما عن عمر والآخر عن « جحا فى بلاد العرب » ، ورأيت أن أستفيد من كل منظر مشترك توفيرا للجهد والمال ، وهذا منظر مشترك فصورنا عمر للفلم الأول ، وجحا للفلم الثانى ·

ــ والممثل واحد فى الحالين ؟!

فقال بثقة :

ــ انه نجم شباك ، ومن القلة النادرة التى تحسن تمثيل الدراما والكوميديا ··

رأيتنى عقب ذلك وأنا أركض بسرعة فائقة ، ولكنى لم أدر أأركض وراء هدف أريد أن أدركه أم أركض من مطارد يروم القبض علىّ ··

الحلم رقم ٦

رأيت فيما يرى النائم ··

أننى فى حجرة بلا نوافذ مغلقة الباب ، بهـا مقعد واحد وشمعة تحترق مثبتة فوق الأرض · ودق الباب دقا متتابعا ففتحته فخيل الى أننى أنظر فى مرآة · انه صورة طبق الأصل منى الا أنه عار تماما الا مما يستر العورة · سألته :

ــ من أنت ؟

فأجاب وهو يلهث مما دل على أنه شق طريقه ركضا :

ــ انك تعرف تماما من أكون ·

ــ ولكنى لا أصدق عينى ·

فقال وهو يتنفس بعمق ليسترد توازنه :

ــ أما أنا فأصدق كل شىء ، ورائى عمر وأجيال لا تحصى ··

فقلت برثاء :

ــ كان ينبغى أن تكون راقدا فى سلام ··

فقال بعتاب :

ــ لكنــــك لم تتركنى للســــلام ، ما زلت تلاحقنى بخواطرك حتى أخرجتنى من الزمن !

فقلت بأسف :

ــ كأنك مطارد !

ــ كيف أفلت من القبضة دون مطاردة ؟! ·· أسرع لنهرب معا ··

فقلت محتجا :

ــ مجيئك الىّ ورطنى فى جريمة لا شأن لى بها ··

فجال ببصره فى الحجرة وقال :

ــ لا يبدو أن حظك أسعد من حظى ، أسرع ··

فقلت بقلق :

ــ ليس الأمر كما تتصور ··

فقال بضيق :

ــ ولا هو كما تتصور أنت ، أسرع فانهم لن يفرقوا بيننا ··

ــ لولا مجيئك ما لحقتنى الشبهة ··

ــ انها مسئوليتك ، لا تبدد الوقت ··

فسألته بغيظ :

ــ ولكن الى أين ؟

فقال بعجلة :

ــ سنفكر فى ذلك ونحن نعدو ··

وتماسكنا باليد وأطلقنا ساقينا فى الليل كمجنونين .

وتساءلت :

ـ كيف نحسن التفكير ونحن نركض بهذه السرعة ؟

فهتف بحدة :

ـ اجر ٠٠ اجر ٠٠ ألم تشعر بفساد جو الغرفة ؟!

فقلت كالمعتذر :

ـ انى لا آوى اليها الا فى الليل ٠٠

فهتف :

ـ لا يوجد ليل ولا نهار ولكن يوجد الهواء والركض ٠٠

وتساءلت :

ـ لماذا لا أسمع أصوات من يطاردوننا ؟!

ولكنه لم يجب ٠ وشعرت بأن يدى لم تعد تقبض على شىء ، وأنه لم يعد له أثر ، ولم تساورنى أى رغبة فى التوقف ٠٠

الحلم رقم ٧

رأيت فيما يرى النائم ٠٠

أننى فى حديقة من أشجار الليمون ٠ وأن الناس يزدحمون حول أشجارها ويتبارون فى ملء مقاطفهم من ثمارها ٠ وأن ثمة بيعا وشراء ومساومات ، وتنافسا

حاميا يشتعل · وأن رجال الشرطة يتدخلون أحيانا لفض نزاع بهراواتهم فتسيل دماء · وكنت أتجول بين الجماعات بلا مقطف حتى قال السمسار ساخرا :

ـ رجل مجنون جاء السوق بلا مقطف !

والحق أن الشذا هو الذى دعانى لا السوق ، فهمت على وجهى أتغزل برشاقة الأشجار وخضرتها الباسمة وأغصانها الثرية · وتخلق حب خالص فى رعاية القبة الزرقاء · وفى لحظة مشرقة استجلت غصنا فأفلت من مطاردة السمسار · ومضى الزمن وأنا أتأود على دفقات النسيم ، وأنهل من حرية عبقة بشذا الليمون ·

الحلم رقم ٨

رأيت فيما يرى النائم ··

أننى عيسى بن هشام بطل مقامات الهمذانى ومريد أبى الفتح الاسكندرى · وأننى كنت أعبر ميدانا فى مكان وزمان غامضين · وترامى الى هتاف مدو بحياة الاستقلال وسقوط الحماية · ثم وجدتنى على حافة مظاهرة ضخمة تحدق بخطيب مفوه جهير الصوت · عرفته رغم بعده عنى بزيه الأزهرى وهو يهدر داعيا الى الثورة والفداء · وهجم الفرسان الانجليز فنشبت

معركة ثم وجدتنى وجها لوجه مع الخطيب قريبا من مدخل جامع · قلت له :

ـ أنت أبو الفتح الاسكندرى ، خطيب الثورة الحر ··

فقال بحزن ملتهب :

ـ نفوا الزعيم الجليل نفاهم الله من الوجود ··

ثم أنشد يقول :

لن ينال المجد من ضا   ق بما يغشاه صدرا

ـ ● ـ

وتغير المكان والزمان كما أوحى الى وجدانى · ورأيتنى أمتطى سلحفاة معمرة فى حجم عنزة · وشهدت اجتماعا فى قاعة عظيمة الاتساع تحرسها رماح الجنود · وظهر فوق المسرح خطيب اندفع يقول بحماس :

ـ لوذوا بالمليك ، صاحب العرش ، هو العامل الأول والعالم الأول والوطنى الأول وقد دالت دولة المهرجين ··

سرعان ما عرفته رغم زيه الجديد المكون من البدلة الأفرنجية · وتبعته الى الطريق وهو ينادى تاكسى فاقتربت منه قائلا :

ـ أهلا بأستاذنا أبى الفتح الاسكندرى ··

فعرفنى بدوره وصافحنى ثم سألنى :

ـ ماذا فعلت بك الأيام ؟

ـ كعادتهـا خيرا وشرا ، ولكن ماذا غـيرك أنت فنقلك من النقيض الى نقيضه ؟!

فقال بجفاء :

ـ العزة فى التنقل ٠

ثم أنشد يقول :

الذنـب للأيـام لا لى فاعتب على صرف الليالى
بالحمق أدركت المنى ورفلت فى حلل الجمـال

ـ ● ـ

ومضى الزمن بى وأنا ممتط هـذه المرة حمـارا ٠ ووجدتنى فى ميـدان لو ذررت الملح فيـه لم ينفـذ الى الأرض من هول الزحام ٠ وفوق حافة نافذة فى الدور الأسـفل من بناء ضـخم وقف خطيب يرتدى بنطلونا وقميصا نصف كم يعلوه وقار الكهولة ويقول :

ـ نورة مباركة تنسخ حياة فاسدة ، وزعيم مبارك يشهر سيفه فى وجه ملك فاسد ، وحلم يتحقق تنبأت به كلماتى الحارة المسطورة فى الصحف !

ثم وجدتنى مع الخطيب عقـب انفضـاض الجمـع الحاشد ٠ قلت :

ـ يا أبا الفتح يبلى الزمان وتبقى لك جدتك لا تبلى ٠

فقال باسما :

ـ حمدا لله الذى أبقانى حتى أشهد هذا الزعيم ٠

فقلت بعد تردد :

ـ ولكنى لا أذكر أنك تنبـأت بمـا حدث أو ضقت بما كان !

فأنشد قائلا وهو يضحك :

أنا ينبــوع العجــائب فى احتيــالى ذو مراتب
أغتــدى فى الدير قســـيسا وفى المسجد راهب

* * *

وجرى الزمان وقد أركبنى بغلا • واذا بأمواج من البشر تتلاطم وتقذف بالهتافات الى أركان المعمورة ، وثمــة سيارة تمضى على مهل يقف فى مقدمتهــا رجل يخطب من خلال مكبر صوت :

ـ محق الله الزيــف والضـــلال ، اختفى مــدعى الزعامة ، واستوى على العرش الزعيم الحق ، الشاب المكافح ، والمناضـــل ، والمعـلم ، والرائد ، ومتبنى ثورات العالم ••

وخلوت اليه فى مكان ذكرنى بزاوية العميان بالباب الأخضر ، وقلت :

ـ ما أنت الا شيخنا أبو الفتح الاسكندرى ••

فقال وهو يشد على يدى :

ـ لا يحتاج الأمر الى فراسة !

فقلت :

ـ يا لك من وثاب لا يثبت على حال !

فقهقه طويلا ثم أنشد :

بؤسا لهذا الزمان من زمن كل تصاريف أمره عجب
أصبح حربا لكل ذى أدب كأنما ساء أمه الأدب

* * *

ووجدتنى أزحف مع الزمان فوق السلحفاة كرة أخرى · ورأيت جموعا لم أر لكثافتها مثيلا من قبل ، تسفح الدمع وتمزق ثيابها من لوعة الحزن · هذا والمدفع يمضى بالنعش دائسا على ارادات البشر · ثم وجدتنى فى بهو مكتظ بالمستمعين ، ورجل وقور أبيض الشعر يقول بحكمة وأسى :

ـ دعوا البكاء للنساء ، مصر باقية لا تموت ، وآن لنا أن ننطق بالحق ، ما كان عهده الا عهد التعذيب والافلاس والهزائم ، أفيقوا من الحزن والسحر معا ، وابدءوا الحياة من جديد ··

فخرقت الصفوف حتى واجهته وهتفت به :

ـ انك لمعجزة يا أبا الفتح ·

فهز رأسه ساخرا وأنشد :

هـذا الزمان مشوم كما تراه غشوم
الحمـق فيـه مليح والعقل عيب ولوم
والمال طيـف ولكن حول اللئـام يحوم

فسألته :

ـ ألك نظير فى العباد ؟!

فقهقه عاليا وأنشد :

اسـكندرية دارى لو قر فيها قرارى
لكن بالشام ليلى وبالعراق نهارى

الحلم رقم ٩

رأيت فيما يرى النائم ··

أننى فى مدينة أنيقة أرضها أعشاب عميقة الخضرة ، تنتثر فى جنباتها عيون ماء ، وتظلها أشجار بلخ وليمون وبرتقال · تجولت فيها طويلا فلم أصادف انسانا ولا جانا ولا حيوانا ثم لمحت تحت صفصافة أسدا يقرأ فى كتاب فقصدته متشجعا بطمأنينة باطنية · رفعت يدى تحية وسألته :

ـ ماذا تقرأ يا ملك الملوك ؟

فرمقنى بهدوء وتمتم :

ـ كليلة ودمنة ··

فسألته باهتمام :

ـ لماذا يا ملك الملوك ؟

ـ منه تعلمنا كيف نعيش فى سعادة ·

ـ ولكن المدينة خالية !

فقال بسخرية :

ـ يلزمك أن تتعلم كيف تنظر ، ما صناعتك ؟
فقلت بايحاء داخلى :
ـ أنا مغن !
فتهلل وجهه وقال :
ـ نحن لا نستقبل الا المغنين ، أسمعنى بعض ما عندك ..
فغنيت :

ما فى النهار ولا فى الليل لى فرج
فما أبالى أطال الليل أم قصرا

فهز رأسه طربا حتى تشعثت لبدته وقال :
ـ أرحب بك فى مدينتنا لتذكر أهلها بتعاساتهم القديمة فيزدادوا امتنانا لما حلت بهم من نعمة .
ونادى نسرا فهبط وئيدا فى جلال وطاعة فأمره قائلا :
ـ اذهب بهذا الضيف الجديد الى فندق الرضى ..

الحلم رقم ١٠

رأيت فيما يرى النائم ..
أننى فى صحراء لا يحدها الا الأفق . أقيم خيمة لأمضى بها عطلة نهاية الأسبوع . لا صحبة إلا الرمال

فى الأرض والزرقة العميقـة فى السـماء وحدأة تدور عاليا فوق رأسى كأنما تنتظر · وظهر أمامى فجأة رجل فى عباءة حمراء ينطق وجهه بالشباب والأسى · تبادلنا النظر ثم تبادلنا التحية · قلت له :

ـ لعلك فى عطلة مثلى ؟

سألنى وكأنه لم يسمعنى :

ـ من أنت ؟

فأجبته بايجاز :

ـ اسمى نديم ·

ـ نديم من ؟

ـ انه اسم لا صفة ، كأنك تبحث عن شىء ؟!

فقال بحيرة :

ـ ملابسك غريبة ، أأنت من أهل المكان ؟

ـ انى أزوره أحيانا التماسا للنزهة :

ـ متى زرته آخر مرة ؟

ـ منذ شهر ·

فأشار الى موضع من الرمال المترامية وقال :

ـ كان هنا يقوم قصر الملكة ·

فتساءلت بذهول :

ـ أى ملكة ؟

فأشار الى موضع آخر وقال :

ـ وذاك موضع دار القضاء ··

فداخلنى شك فى عقله وسألته :

ـ متى زرت المكان آخر مرة ؟

فقال دون مبالاة :

ـ منذ خمسة آلاف سنة !

فلم أتمالك من الضحك فقال ببرود :

ـ ماذا يضحكك يا هذا ؟!

وجعلت أنظر اليه فى حذر متحاشيا اثارته فقال وهو يشير الى موضع جديد :

ـ وهناك كانت تصدح أرجاء البهو بالغناء ٠

فقلت أجاريه متظاهرا بتصديقه :

ـ مائة عام كافية لتغيير أى مكان فما بالك بخمسة آلاف سنة ، من حضرتك ؟

فقال بهدوء :

ـ أنا الخضر ٠٠

ـ سيدنا الخضر ؟!

ـ سيدنا ؟!

ـ لقد حظيت بالخلود فأنت سيد البشر !

فقال بأسى :

ـ أنا أســـــير الوحدة ، فأنا الخلاء وأى أغراب لا يعرفوننى ٠٠

واندفعت بالهام قوى أقول :

ـ هلا سمحت لى بمرافقتك بعض الوقت ؟
فهز منكبيه وقال :
ـ لن تستطيع معى صبرا ٠
ومضى مبتعدا وهو يسير بسرعة البرق ٠٠

الحلم رقم ١١

رأيت فيما يرى النائم ٠٠
أننى حزين وقلبى ثقيل ولكننى لا أعرف سببا معينا لحالى ٠ وسرت فى طريق مجهول حتى أرهقنى السير ٠ وشعرت طوال الوقت بأننى أسعى وراء غاية لكنها غابت عن وعيى أو غاب عنها وعيى ٠ وتبرق لحظة خاطفة فى غياهب نفسى مغررة بى فأتوهم أننى مستكشفها ولكنها سرعان ما تغوص فى الظلام مخلفة يأسا ٠ ودوما لا أكف عن التطلع والانخداع واليأس ولا أكف عن السير ٠ وصحبنى الحزن مع خطاى ، وانثالت على صور متلاحقة سريعة هامسة بذكريات الهناء الراحل والأحبة الذاهبين ٠ وأذهلتنى كثرتها كما أذهلنى عدمها ٠ وقعقع الرعد حتى ارتعشت أطراف ، ولكنه قال بصوت واضح :
ـ سوف تنقشع الأحزان وينهمر المطر ٠

الحلم رقم ١٢

رأيت فيما يرى النائم ..

أن الأرض تتقشر ، وتتشقق . وتتقلص وتموج ، ومن الأعماق تبرز على مهل عمد وأسطح وقباب ، ثم مضى يتجلى وجه مدينة غامرة . شـــوارعها محجوبة بالأتربة ، مساكنها متهدمة ، وما بها من قائم سوى المعابد وبعض التماثيل . وتحلقهـا قوم لا حصر لهم ينظرون ويتحاورون :

ـ مدينة أثرية جديدة ..

ـ وثائق لتاريخ جديد .

ـ ألا يوجد أثر لانسان ؟

ـ المقابر لم تكتشف بعد .

ولبثت ما لبثت حتى انتبهت فوجدت نفسى وحيدا . ورحت أخترق شارعها الرئيسى حتى أدركنى الليـــل وأظلتنى النجوم . ومزقت السكون صرخة . صرخة أنثى فيما بدا لى . وثمة طيف هرع نحوى حتى جثا بين يدى ، وثمة صوت هتف :

ـ أنقذنى ..

سألتها :

ـ ماذا يتهددك ؟

ـ سيف الجلاد ٠

ـ من أنت ؟

ـ أنا بريئة ٠

فسألتها بشدة :

ـ ما تهمتك ؟

ـ التهمة التى لا يبرأ منها أحد ، حتى أنت !

فقبضت على يدها وأنهضتها ، ثم انطلقنا معا كشهابين فى ظلمة الليل ٠٠

الحلم رقم ١٣

رأيت فيما يرى النائم ٠٠

امرأة فى الخمسين تذهب وتجىء بوجه جففته الوحدة ٠ قلت انى أعرف هذا الوجه ولكن من ، ومتى ، وأين ؟ ٠ وحيرتنى سحب النسيان ٠ غير أن المرأة لم تهجع ولكنها ذهبت محمومة وهى ترمقنى بعين مفكرة ثم رجعت بشاب رث الهيئة وهى تربت خده بحنان ٠ وانقض عليها الشاب فاعتصرها بين ذراعيه مليا حتى تأففت ٠ ورماها بنظرة نكراء ثم

دفعها فتهاوت على الأرض فانهال عليها ضربا ثم ذهب • جعلت تتأوه وتبكى ، ثم قامت فى اعياء شديد وقد فقدت ذراعها اليسرى • قلت لها :

ـ ذراعك !

فأعرضت عنى ومضت ، ثم رجعت وهى تربت خد شاب شبه عار • وجذبها اليه مثل ذئب جائع واعتصرها بين ذراعيه • وانفصل عنها متقززا وصب عليها قبضتيه وقدميه حتى سقطت على وجهها • وغادرها فاستسلمت للنحيب ثم نهضت طاعنة فى السن وقد فقدت ذراعها اليمنى • وقلت لها :

ـ ذراعك !

فأعرضت عنى وولت • وتكرر الفعل وردة الفعل حتى لم يبق منها الا اللسان• وغزاني الحزن والعجب فتساءلت :

ـ ماذا فعلت بنفسك ؟!

فأجابنى لسانها :

ـ الوحدة والحنان ••

وتساءلت فى حيرة « متى سمعت هذه العبارة من قبل ••؟ »

الحلم رقم ١٤

رأيت فيما يرى النائم ..

شابا وسيما ، يسير بسرعة ، يشع من عينيه الصافيتين نور يضيء له الطريق . يوحي مظهره بالفتوة والحماس ومعرفة الهدف ، فانجذبت الى اتباعه لأحظى برؤية ما هو فاعل . منيت نفسى بمشاهدة حدث مثير أو نجاح مأثور ، فكلما تحفز تحفزت ، وكلما ضاعف من سرعته ضاعفت ، وكلما أشرق وجهه أشرقت . وقطعنا أماكن كثيرة ، ورأينا مناظر عجيبة ، وتعاملنا مع أناس لا ينسى لهم خير ولا شر ، وسليت نفسى المتوترة بأن المشهد المرموق سيسهل على بطلعته الشافية المترقبة . ولم أكترث للزمن المنطوى ولا للجهد الضائع . ولكن الشاب الوسيم راح يتغير منظره ، وتتقلص عضلات ساقيه وتنخفض درجات سرعته رويدا . وجعلت أسمع تردد أنفاسه وهى تغلظ وتثقل ، وأنات شكواه المتصاعدة ، وبرمه بكل شيء . وأخذ يسب ويلعن ويشتعل غضبا . وأخيرا توقف عاجزا عن الاستمرار ، ثم تهاوى على الأرض وهو يلهث . وجزعت جزعا شديدا ، وهتفت :

ـ تشدد واستمر ..

وخيل الى أن النوم يغالبه فصحت :

ـ عليك تقع مسئولية شرودى وانخداعى ..

فرفع الى عينين مظلمتين وهمس :

ـ هبنى رحمة الوداع ..

حولت عنه عينى الحانقتين ورفعتهما الى السماء فرأيت السحب تتراكم كأنها الليل ثم استجابت لرياح الشرق فانقشعت فبشرنى هاتف الغيب بالعزاء .

الحلم رقم ١٥

رأيت فيما يرى النائم ..

أننى أسير فى شارع ضيق طويل . شغلت بهدف فلم أنتبه للمارة . وفى نهاية الشارع طالعنى مبنى يجمع فى هيئته بين المعبد والجامع والمسكن . دخلته مطمئنا الى دعـوة لا أدرى متى ولا كيف تلقيتهـا . وقطعت دهليزا بلغ بى بابا مقبب الهامة فدفعته ودخلت . لم أر من المكان الا الرجل الجالس فى صدره . رجل بالغ الكبر ولكنه على كبره واضح الصحة والعافية ، بارز المـلامح ، ذو وجـه عـريق مجلل بالوقار واللحيـة

البيضاء ، ينفث عطرا يذكر بالعصور الخالية · لثمت يده وقلت معتذرا :

ـ جئت تلبية للدعوة ·

فقال بصوت عميق التأثير فى النفس :

ـ تأخرت قليلا ولكن لا بأس ··

وأشار الىّ فتربعت على شلتة بين يديه وأنا أسائل نفسى عما وراء دعوته · ولكنه لم ينبس بكلمة · وسرعان ما وجدت عينى تنجذبتان الى عينيه حتى خيل الى أننى أنظر الى بللورتين متوهجتين · اختفى العالم والوجود · ثم عدت الى وعيى على لمسة من يده وسمعته يقول :

ـ يا له من حديث ويا لها من مناجاة !

فهممت أن أقول اننى لا أذكر شيئا ولكنه بادرنى بنبرة توديع حاسمة :

ـ اذهب مصحوبا بالسلامة ·

رجعت من الشارع الضيق الطويل وأنا أشعر بأننى مشدود اليه بأسلاك غير مرئية ،وأننى أسيره الأبدى· وأردت أن أمارس حياتى المألوفة فقصدت لونابارك نزهتى المفضلة ولكن الأسلاك الخفية صدتنى عنها فتحولت عنها وأنا أقول لنفسى :

ـ انى مسير بارادته !

اقتنعت تماما بأننى أفعل ما يريد لا ما أريد أنا ،

وأنه يسوقنى الى أشياء وأشـياء وأننى لم أعد أنتفع بعقلى أو ذوقى · وسمعت الناس يتحدثون عما يقع ويتساءلون عن الفاعل المجهول · وها هم يجدون فى أثرى والحلقة تضـيق ولكنهم لا يتفقـون على رأى ، فمنهم من يطالب بعنقى ومنهم من يدعو لى بالسلامة !، والحق أن الرجل لم يثر فى نفسى الكراهيـة ، ولكننى تقت للتحرر من سطوته الشاملة المخيفة · ولا أدرى كيف سـاقنى الحظ الى مكتب التحقيـق فرأيتنى أمام المحقق وهو يقول لى :

ـ اعترف فهو خير لك ·

فقلت :

ـ انى برىء وما كان بوسعى أن أفعل الا ما يمليه على ··

فقال متهكما :

ـ الرجل ينكـر قصـتك المختلقـة معه فأنت أمام القانون عاقل حر ··

فهتفت وكأنما أخاطب الرجل :

ـ انك تعرف الحقيقة فأنقذنى !

ومكثت فى السجن أنتظـر يوم الاعدام · وبلغ بى الضيق منتهاه · واذا بشعور يهمس لى بأن ما أعانى ما هو الا كابوس · عند ذاك قررت أن أستيقظ مهما

كلفنى الأمر · ورحت أضرب مقدم رأسى بقــوة ودون توقف ناشدا باصرار اليقظة المأمولة ··

الحلم رقم ١٦

رأيت فيما يرى النائم ··

أن طيفا زارنى بليل فقــدم لى كأسا وقال بصــوت عذب :

ـ اشرب ·

فشربتها حتى الثمالة · ذاب الطيف فى الظلمة · وانتشر السائل فى جسدى وروحى كالشــذا الطيب · ونهضت وأنا أشعر شــعورا راسخا بأننى أملك قوة لا حد لها · وأردت أن أجرب صدق شــعورى فأمرت النوافذ أن تفتــح · وفى الحال انفتحت النــوافذ على مصراعيها وتدفق النور · وخرجت أتجول فى شوارع المدينة معتزا بالقوة الخارقة · وفطنت غرائز القــوم الملهمــة لسر القــوة الكامنــة فى أعمــاقى فخاطبتنى نظراتهم الكسيرة بأمانيهم المكبوتة · تلقيت عشرات الرسائل الخفية الضارعة بمحو هذا الشر أو ذاك ، وتحقيق هذه الرغبة أو تلك ، وتأديب هذا الرجل أو قتل ذاك · ووجدتنى مثقلا بالآمال والأمانى والتبعات

فاستحالت القوة الى عبء تنوء به الجبال • وتسلل الى خاطر لا أدرى من أين جاء بأن هذه القوة الخارقة لن تدوم الا ما دام السائل فى جوفى • وعلى ذلك تركز تفكيرى فى استغلالها لدعم سعادتى الشخصية • وألقيت العبء عن كاهلى وانحصرت فى هدف محدد واضح • ولكن ما كاد يزايلنى القلق حتى ترامى ،ـ وقع أقدام ثقيلة تطاردنى • وهزئت بالمطاردة والمطاردين وقلت لنفسى سيروننى فى اللحظة الحرجة وأنا أحلق كالنسر أو أختفى كالوهم • واقتربت منى الأقدام والأصوات الغاضبة فأمرت جسدى بالاختفاء عن الأعين • وحدثت معجزة ولكن مضادة • لم يصدع جسدى بأمرى وتطايرت قوتى فى الجو فوقعت بين يدى المطاردين بلا حول • ولم يعد لى من أمل الا فى صحوة رحيمة تعقب كابوسا مخيفا ••

الحلم رقم ١٧

رأيت فيما يرى النائم ••

أننى جالس تحت مظلة سوداء ، أتسلى بمشاهدة صندوق الدنيا • وتتابعت المشاهد أمام عينى المبهورتين بدءا بالانسان البدائى ، مرورا بالحضارات

القديمة والمتوسطة والحديثة حتى صعود الانسان الى القمر ، ثم وجدتنى فى مسكنى فريسة لرغبة جامحة هى أن أصعد الى القمر ، وكنت أجلس وسط متاع غزير ، تراكم فوق بعضـــه البعض حتى غطى الجدران وسد النوافذ ، وكان جسمى نفسه مثقلا بالأوسمة والهدايا الثمينـــة حتى تعــذرت على الحركة وأخذت أغوص فى الأرض· وعلمت بطريقة ماأننى أنتظر زائرا هامافحرت كيف أستقبله ، وأين أجلسه ، وخفت سوء العاقبة · وضاق صدرى بفساد الجو والزمن فتمردت علىحرصى وأقبلت أنزع الأوسمة والهدايا من أركان جســدى ، وأركل المتاع يمنة ويسرة حتى شققت لنفسى طريقا الى الخارج · وتنفست بعمق فأذهلتنى خفة وزنى · ولاح الزائر قادما عند الأفق ولكننى لم أستطع انتظاره اذ مضيت أترجح وأرتفع عن الأرض على مهل وثبات · أدركت أنى أحلق فى الفضـــاء وأنى كلما ارتفعت مترا ازددت سرعة · وغمرنى الشعور بالانعتاق ووعدنى بمسرات تعجز عن وصفها الكلمات ·

« تمت »

مكتبة مصر

سعيد جوده السحار وشركاه

تقدم قائمة بمؤلفات عمالقة القصة المصرية

الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب		تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة	
مصر القديمة		١٩٣٢		
همس الجنون	(مجموعة)	١٩٣٨	العاشرة	١٩٧٩
عبث الأقدار	(رواية تاريخية)	١٩٣٩	التاسعة	١٩٧٨
رادوبيس	(رواية تاريخية)	١٩٤٣	العاشرة	١٩٨١
كفاح طيبة	(رواية تاريخية)	١٩٤٤	التاسعة	١٩٧٩
القاهرة الجديدة	(رواية)	١٩٤٥	الحادية عشرة	١٩٧٩
خان الخليلى	»	١٩٤٦	العاشرة	١٩٧٩
زقاق المدق	»	١٩٤٧	التاسعة	١٩٧٨
السراب	»	١٩٤٨	العاشرة	١٩٧٩
بداية ونهاية	»	١٩٤٩	الاثنتا عشرة	١٩٨٠
بين القصرين	»	١٩٥٦	الحادية عشرة	١٩٧٩
قصر الشوق	»	١٩٥٧	العاشرة	١٩٨٠
السكرية	»	١٩٥٧	التاسعة	١٩٧٨
اللص والكلاب	»	١٩٦١	التاسعة	١٩٨٠
السمان والخريف	»	١٩٦٢	السابعة	١٩٧٨
دنيا الله	(مجموعة)	١٩٦٣	الخامسة	١٩٧٨
الطريق		١٩٦٤	السابعة	١٩٨١
بيت سيىء السمعة	(مجموعة)	١٩٦٥	السادسة	١٩٧٩
الشحاذ	(رواية)	١٩٦٥	السادسة	١٩٧٨

اسم الكتاب		تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة	
ثرثرة فوق النيل	(رواية)	١٩٦٦	الخامسة	١٩٧٩
ميرامار	«	١٩٦٧	الخامسة	١٩٧٩
خمارة القط الأسود	(مجموعة)	١٩٦٩	السادسة	١٩٨٠
تحت المظلة	(مجموعة)	١٩٦٩	الخامسة	١٩٧٨
حكاية بلا بداية ولا نهاية	(مجموعة)	١٩٧١	الخامسة	١٩٧٨
شهر العسل	(مجموعة)	١٩٧١	الخامسة	١٩٨٠
المرايا	(رواية)	١٩٧٢	الرابعة	١٩٨٠
الحب تحت المطر		١٩٧٣	الرابعة	١٩٨٠
الجريمة	(مجموعة)	١٩٧٣	الثالثة	١٩٧٨
الكرنك	(رواية)	١٩٧٤	الخامسة	١٩٧٩
حكايات حارتنا	(رواية)	١٩٧٥	الثانية	١٩٧٨
قلب الليل	(رواية)	١٩٧٥	الثالثة	١٩٨١
حضرة المحترم	(رواية)	١٩٧٥	الثالثة	١٩٧٩
ملحمة الحرافيش	(رواية)	١٩٧٧		
الحب فوق هضبة الهرم	(مجموعة)	١٩٧٩		
الشيطان يعظ	(مجموعة)	١٩٧٩		
عصر الحب	(رواية)	١٩٨٠		
أفراح القبة	(رواية)	١٩٨١		
ليالي ألف ليلة	(رواية)	١٩٨٢		
رأيت فيما يرى النائم	(مجموعة)	١٩٨٢		

تحت الطبع :

الباقي من الزمن ساعة (رواية)

رحلة ابن فطومة (رواية)

العائش في الحقيقة (رواية)

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقى
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الايداع ٢٠١٣ ــ ٨٢
الترقيم الدولى ٤ ــ ٥٢٦ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٩٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه